

Cat (64)

سلسلة الكتب المترجمة
٣

مركز الأبحاث والدراسات
مديرية الثقافة العامة

الحياة في العراق

منذ قرن

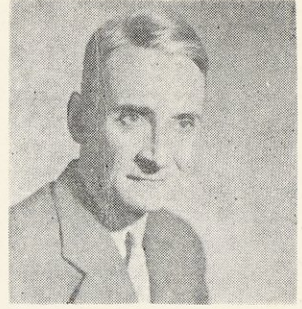
١٨١٤ - ١٩١٤

تأليف السفير الفرنسي

پیردی قوصیل

ترجمة

الدكتور اكرم فاضل



بيير لوي جوزيف دي فوصيل

- المولد ١٣ شباط ١٩٠٧ .
- الحصول على الليسانس في الحقوق وعلى دبلوم العلوم السياسية ،
- التعمية : ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ .
- إشغال منصب وزير مفوض من الدرجة الأولى .
- الاشتراك في مسابقة الالتساب الى السلك الدبلوماسي والاقتصادي : ١٨ مايس ١٩٣٢ .
- ملحق في سفارة بخارست ، ١٩٣٢ — ١٩٣٦ .
- الادارة المركزية الامريكية ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ .
- سكرتير ثالث في برلين ، ١٩٣٧ — ١٩٣٩ .
- نائب رئيس قسم الادارة المركزية (للأعمال) ، ١٩٤٠ .
- سكرتير ثان : في بودابست ، ١٩٤٠ — ١٩٤٣ .
- اعتزال الخدمة مؤقتاً بدون راتب بناء على طلبه ، تموز ١٩٤٣ .
- سكرتير أول في بروكسل ١٩٤٤ — ١٩٤٨ .
- الادارة المركزية (سكرتارية المؤتمرات) ، ١٩٤٨ — ١٩٥٠ .
- فارس وسام الشرف ، ٢ تشرين الأول ١٩٤٨ .
- المستشار الأول في بروكسل ، ١٩٥٠ — ١٩٥٤ .
- سفير فوق العادة ووزير مفوض في بغداد ، ١٩٥٤ — ١٩٥٦ .
- ضابط وسام الشرف ، ٦ آذار ١٩٥٧ .
- ممثل مساعد دائم لفرنسا في مجلس الأمن ورئيس مساعد للبعثة الدائمة الفرنسية لدى هيئة الأمم المتحدة ، ١٩٥٧ — ١٩٥٩ .
- رئيس القسم السياسي لمعهد الدراسات العليا للدفاع الوطني ، ١٩٦٠ — ١٩٦٣ .
- سفير فوق العادة ووزير مفوض في كاراكاس من شباط ١٩٦٣ حتى ١٩٦٨ .

مدينة
المكتبة المركزية
لجامعة بغداد

الحياة في العراق منذ قرن

الحياة في العراق

منذ قرن

١٨١٤ - ١٩١٤

تأليف السفير الفرنسي

پیردی قوصیل

ترجمة

الدكتور اكرم فاضل

مكتبة دار الجهورية

مكتبة دار الجهورية

تفاهات

تفاهات

3171-3171

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجهورية - بغداد
١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م

توطئة

أيام اقامتي في بغداد ، منذ بضع سنوات خلت ، لفت نظري بعض أعوانني الى وجود خزانه خاصة بين خزانات السفارة تحتوي على محافظ لمجموعة من الوثائق يرجع تاريخها الى ما قبل عام ١٩١٤ .

ولكن هذه الوثائق والمستندات ، التي يرقى الزمان بتواريخها الى السنوات الأولى للقرن التاسع عشر ، والتي لم تأت عليها يد الدمار والبوار عبر سنوات انغماسنا في الحرب ضد الدولة العثمانية ، قد ظلت ناقصة يعتلج في صدرها الشوق الى الكمال ، وعلى الأخص كانت تعوزها مراسلات قناصلنا . ولكن هذه الوثائق ، وهي على حالتها هذه ، قد أخذت بمجامع قلبي والهبت مشاعري : فهي ، على كونها مكتوبة بأسلوب طنان وساذج في الوقت نفسه — من قبل وكلاء هم في اغلب الحالات على درجة كبيرة من البساطة وجلهم نابعون من الأوساط التي شملتها الحماية الفرنسية في المشرق ، ومن بين أولئك الذين تمرسوا وزاولوا أعمالهم بين حلب وجدة وديار بكر وبغداد ، وهم على علم تام بأسرار الاوساط التركية والعربية التي يتكلمون بلغتها — أقول رغم كل هذا فان هذه المراسلات تتضمن وصف عالم قد انطمس اليوم كل الانطماس ، لأن هذه البلاد هي عبارة عن صحارى

بدون آبار نطف (١) تخترقها القوافل البدوية فقط . ومدن ذات أزقة ومنعطفات ودروب متعرجة واسواق صاخبة تعج بالهرج والمرج والصخب والضجيج .

وهذه البلدان تتجاحها بين حين وآخر جحافل الأوبئة والطواعين وترجها الفتن العنصرية والمشاحنات الدينية رجاً عنيفاً ، وسكانها ما يبرحون يعانون ما يعانون من الولايات ، وهم يرزحون في طور البدائية تحت وطأة المصائب ، وتعصف بهؤلاء في بعض الاحايين نزوات الوحوش ، ولكنهم رغم ذلك قد ظلوا محتفظين ببعض فضائل الآباء والاجداد .

وهناك موظفون خونة الذمم أو كسالى خاملون مترخون متبلدون لا يخفف من طغيانهم وغطرستهم إلا الخوف الطارئ المفاجيء من غضب رؤسائهم عليهم وصب نقمتهم على رؤوسهم .

لقد امضيت ، حين شرعت بتتقياتي هذه ، ساعات طويلة مضنية وأنا اجاهد في حل رموز هذه المراسلات القديمة التي علاها الغبار وكفنها ، ولقد قدرت أن من المفيد والمبهج للمواطن الفرنسي في أيامنا هذه ، الذي تجره شؤونه أو اوقات فراغه الى هذا الشرق الاوسط ، الذي يختلف كل الاختلاف عما كان عليه في السنين الغابرة ، أن يكون لنفسه فكرة أكثر دقة وتحديدأ عن ظروف الحياة التي عرفها هناك منذ عشرات السنين

(١) ان الاشارة الوحيدة التي تخص وجود البترول في العراق . التي عثرت عليها في مراسلات قناصلنا — وهذه المراسلات تتوقف — كما سأذكر ذلك فيما بعد في حدود عام ١٨٩٧ — ان هذه الاشارة وردت في احدى رسائل مسيو بلاس ، قنصلنا في الموصل الذي باشر وظيفته في ٢٧ حزيران ١٨٥٤ . وهذا القنصل يسرد علينا فيما يسرده قصة الرحلة التي قام بها الى ولاية كركوك . فيحدثنا ان البلدة المسماة طوزخورماتو (توجد فيها عين ماء ساخنة تقذف بالزفت المعدني — كذا ! — بصورة غزيرة بحيث ان الفلاحين يستعملونه لاناارة منازلهم ، ذلك لأن الزيت نادر الوجود للغاية ، بل لعله لا وجود له في هذا الجزء من الولاية) .

(المؤلف)

فقط اولئك الذين وقع على عاتقهم تمثيل فرنسا في تلك الربوع .
ويوم عدت الى باريس بعد بضع سنوات مضت على رحيلي من بغداد
استطعت بفضل عناية ورعاية مسيو بايو ولطفه وكرمه ، وهو مدير حافظات
وثائق وزارة الخارجية ومستنداتها ، أقول استطعت عن طريق هذا الرجل
ومعاونه أن أراجع وأقابل مراسلات وكلائنا في بغداد والبصرة والموصل ،
والمراسلات الواقعة بين الاعوام ١٨٣٠ و ١٩٠٠ وهي عبارة عن مقتبسات
من هذه المكاتب التي أخذت على نفسي أن أضعها تحت أنظار قرائنا .
وقد عرضتها كما هي حرصاً مني على أن تظل محتفظة بطعمها ونكهتها .
وان مساهمتي الشخصية في هذا العمل قد ظلت كذلك مقيدة بحدود
الامكانيات المتيسرة ، فلقد ضربت على نفسي نطاقاً في تلخيص بعض الرسائل
أحياناً حين تكون مفرطة الطول باللغة الاسهاب على أن أربط بين ما في
النصوص الأصلية من خطوط جوهريّة .

ولأسباب تتعلق بوجوب التكتّم فقد أثرت أحياناً الاضراب عن التصريح
بأسماء محرري الرسائل أو أسماء الأشخاص الذين لعبوا بعض الادوار على
مسرح تلك الأيام . وللعلة ذاتها قدرت أن من الأفضل — ولو كان ذلك
على حساب اللون المحلي — أن أترجم الى اللغة الفرنسية التسميات التركية
أو العربية أمثال كلمة (والي) وكلمة (قائممقام) أو التسميات التي
لا نألفها كثيراً .

ان هذه المراسلات يزيدنها لذة في مذاق من سيطلعون عليها كونها
تستعير — كما كانت العادة الجارية آنذاك — شكل الرسائل الخاصة
الموجهة الى الوزير ، تلك الرسائل التي تكون في أغلب الأحوال على جانب
كبير من التظويل ترصعها عبارة (سيدي الوزير) وتنتهي بالصيغة المعهودة :

« .. وتفضلوا بقبول التطمينات بالاحترام الذي معه لي الشرف بأن أكون . لكم يا صاحب المعالي أوطأ خادماً متواضعاً مطيعاً » . تلك الصيغة التي تتناقض بصورة مضحكة أحياناً مع محتوى الرسالة التي يضمنها الوكيل أو المعتمد وصف أمراضه وأسقامه أو يقص ، بلهجة النديم إلى النديم ، قصة معاكسات القدر ومشاكساته له أثناء سفرته .

ولكن قبل أن أترك جبل الكلام إلى أسلافي الأبعدين ، أود أن أضيف ملاحظتين تتسمان بصفة العموم .

وأرى بادئ بدء أن انص على أنني — كما يشير إليه عنوان دراستي هذا — لم أهدف إلى الوقوف موقف المؤرخ . ولذلك فإني لم اتخير من مراسلات معتمدنا إلا النصوص التي تعطي فكرة عن حياتهم وحياتة سكان الوسط الذين كانوا يمارسون نشاطهم فيه . ولقد طرحت جانباً مع سبق التصميم عموم المراسلات ذات الطبيعة السياسية .

ولهذا فإني أود أن يعلم القراء أن ممثلينا لم يصرفوا كل أوقاتهم في إخبار وزارة الخارجية عن وقائع وتفصيل خصوماتهم ومحاكمتهم التي هي في معظم الحالات مسلية جدية بالتصور والتصوير وذلك فيما يقع لهم من مشاكسات السلطات المحلية لهم . وكذلك لم يقطعوا الزمان في وصف حفلات الاستقبال التي يقيمونها بمناسبة عيد فيليب أو عيد نابليون ، بل على النقيض من ذلك لقد فوجئت كل المفاجأة وأنا أتبين بنفسني درجة براعة قناصلنا في كيفية جمع الأخبار عما يجري في أماكن تكون في الأغلب الاعم نائبة عنهم كل النائبة .

بل لقد غمرني الإعجاب بدقة استعلاماتهم وصحتها بالرغم من المسافات الشاسعة وانعدام وسائل المواصلات السريعة في تلك الاصقاع .. وعلى سبيل

المثال أذكر تعقيبهم وتبعهم بأعلى درجة من الاهتمام والعناية خلال القرن الماضي بسنواته المثين المراحل المتتالية لتسرب الانكليز واقامتهم على شواطئ الخليج العربي كما أعلنوا في عدة مناسبات منذ عام ١٨٨٠ أن الجيوش البريطانية في حالة نزاع علمي ستبذل كل جهودها لضمان السيطرة على العراق . لقد تكهن قناصلنا بأهمية الدور الذي قدر على الوهابيين أن يلعبوه وقد استطعت والفضل يعود الى مراسلاتهم أن اتابع سنة سنة فسنه وقبل أن أقرأ كتاب المؤلف الفرنسي « بنوا ميشان » ملحمة ابن سعود ومشاحناته مع الادارة العثمانية .

وعلى سبيل التذكير أقول بالاضافة الى ذلك تتألق بين القناصل وجوه بعض رواد التنقيب عن الآثار القديمة من ابناء الفرنسيين ، ومن بينهم أمثال بوتنا وبلاس وسارزيك * الذين عرفوا كيف يواجهون عملهم القنصلي بكفاية وامانة ، كما واجهوا في الوقت نفسه تنقيباتهم الأثرية بتصميم ودراية .. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار الظروف المادية التي كانوا يعملون في معمعانها في اقليم بالغ القسوة والجفوة والغلظة وهم عرضة للأمراض وهدف لبدوات وغيلات التعصب التي طالما عرضت حياة هؤلاء الأفراد الى الخطر ...

أقول إذا تذكرونا كل هذا وأطلنا التفكير فيه أحسننا بالاعجاب بهؤلاء الموظفين الذين قد يبدو في تصرفاتهم أحياناً ما يدعو الى الابتسام والابتهاج لدى من يقرأون أخبارهم ، والذين هم مع ذلك شاعرون كل الشعور وواعون كل الوعي لمهمتهم التي قد أخذوا عنها فكرة رقيقة بما تتضمن من أداء مهمات وتحمل مسؤوليات في نطاق الوظيفة .

كما يطيب لي التذكير من جهة أخرى ، وذلك بغية تجنب المساس

بالعواطف وبعض الاعتبارات المشروعة بان العالم الواردة صفاته وشيائه في هذه المراسلات هو من نصيب ذمة الماضي . فأن أقطاراً قليلة من أقطار الكرة الأرضية قد عرفت تحولاً وتحوراً وتبدلاً أوسع وأعمق مما عرفته هذه البلاد من هذه الأشياء منذ خمسين عاماً .

فهي إذا كانت في الماضي ولاية محرومة مظلومة من ولايات الامبراطورية العثمانية تعيش في واقع كونها نهبة للفوضى القبيلة وفريسة لمظالم وتعسفات الموظفين المبعوثين بصورة عامة من بين المغضوب عليهم الى هذه المناطق النائية ، فان هذه المنطقة هي العراق الذي عرفته أخيراً فاذا هو يختلف كل الاختلاف عن (ميزوبوتاميا) — بلاد ما بين النهرين — لعام ١٨٥٠ كما تختلف فرنسا الحالية عن فرنسا القرن السادس عشر .

إن هواة المناظر الجميلة بوسعهم أن يأسفوا على عراق الماضي ، ولكن هذا هو الواقع . . وأياً كان الأمر فاني ان استطعت أن أمنح اسلافي براءة البطولة فان ذلك ليس بصورة مطلقة وإلا لكنت أهدف الى أن أحسب نفسي أنا بطلاً من الأبطال . كلا : وألف كلا . لست هناك . وإذا كان قد توجب علي اثناء اداء مهمتي التغلب على بعض الصعوبات فان هذه الصعوبات قد كانت من طراز آخر إذ لم تكن صحي ولم تكن حياتي بمهددتين أبداً ، بل انني قد عشت في بغداد عيشة لم تختلف على وجه التقريب عن الحياة التي كنت قد عرفتتها أثناء تأدية وظائفني السابقة .

إلا فليأسف من يأسف أو فليفرح من يفرح فان عهد الدبلوماسيين الرواد الذين خاضوا الغمرات الشداد قد مضى وانقضى وانطوت صفحاته .

القسم الأول *

التمثيل الفرنسي في العراق

* إن مجلدات أرشيفات وزارة الخارجية التي استنبطت منها الوثائق المذكورة هي:
المراسلات السياسية لقناصل فرنسا في كل مكان تركية (الأجزاء ١—١٢ للأعوام
١٨٣٠—١٨٤٠) وبغداد والموصل (الأجزاء ١—٥ للأعوام ١٨٤٠—١٨٦٦) و
بغداد (في الجزئين السادس والسابع للأعوام ١٨٦٧—١٨٩٥) والموصل (في
الأجزاء ٢—٤ للأعوام ١٨٦٨—١٨٩٥). « المؤلف »

لقد كان لنا خلال القرن التاسع عشر باكملة ثلاثة مراكز قنصلية لدى ما كان يسمى وقتئذ بميزوپوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وهي : مركز بغداد ومركز الموصل ومركز البصرة . وكانت درجات هؤلاء القناصل لا تنقطع عن التحول والتبدل . ففي بعض الفترات ولأسباب تتعلق بالعزة أو بالانسجام مع متطلبات الوضع كان يقام مركز بغداد على هيئة قنصلية عامة . وهذا ما كانت عليه الحالة مثلاً أيام الامبراطورية الأولى وفي مطالع عهد الامبراطورية الثانية وكذلك كانت الحالة أثناء الأزمة المصرية لعام ١٨٣٩ إذ قدر مسيو تيير (١) أن من المفيد ارسال قنصل عام الى بغداد يأخذ على عاتقه مهمة مراقبة نشاط السياسة الانكليزية في هذه الاصقاع . بل لقد طلب إليه حتى إن يجوس خلال سوريا ليطمئن على المسيحيين هناك . . على أولئك المسيحيين الذين استحوذ عليهم القلق والجزع غداة انقشاع فرنسا التي اضطرت الى التخلي عن محمد علي . ولكن لسوء الطالع حدث أن مواطننا الذي نزل الى الاسكندرية في نهاية عام ١٨٤٠ لم يستطع أن يتعدى العريش نظراً لأن البلد كان في غليان وثوران فاضى فريسة للحرب الاهلية (٢) فتلقى حينئذ

(١) تيير Thiers وزير الخارجية الفرنسية بعد عودة الملكية الى فرنسا ووفاته نابليون بونابرت (س١٠) .

(٢) الحرب الاهلية في مصر ١٨٤٠ - بعد انتصار جيوش محمد علي الكبير على الجيوش العثمانية ، واستيلائها على اجزاء كبيرة من اراضي السلطان ، واستسلام الاسطول العثماني وانضمامه الى جانب محمد علي ، تدخلت انكلترا في الامر دون أن تحيط فرنسا - التي كانت تساند محمد علي - بالامر ، فعقدت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ التي وقعت عليها كل من روسيا والنمسا وبروسيا ، وبموجبها تخلى محمد علي عن كافة الممتلكات العثمانية التي استولى عليها ، ولغرض ارغام محمد علي على تنفيذ بنودها بعثت باساطيلها الى المياه المصرية ، فحدث ذلك هياجاً في اوساط الشعب المصرى كاد يودي الى حرب اهلية . (س١٠)

التعليمات بالتوجيه الى بغداد عن طريق البحر على أن يستفيد من رحلته فيجعلها وسيلة لمراقبة المنشآت التي أقامها الانكليز على طول البحر الأحمر العربي ، وهذا ما فعله . ولكن في الاوقات الاعتيادية لم تكن أهمية بغداد على درجة تجعل من الضروري وجود قنصل عام . وبصورة مستعجلة ولأسباب تتعلق بالاقتصاد في النفقات خفضت الحكومة الفرنسية درجة القنصلية العامة فجعلتها في درجة قنصلية فقط بل حتى نيابة قنصلية وحتى في أيام عودة الملكية والى عام ١٨٤٠ .

ولكن الحكومة عادت الى العادة المتبعة في ظلل النظام القديم التي تنحصر في تكليف القاصد الرسولي بالقيام بمهمة حماية مصالحنا ، وهو الذي كان بصورة تقليدية من المواطنين الفرنسيين .

وكان مركز الموصل يمثل بعض الأهمية وذلك بسبب وجود ارسالية دومينيكانية فرنسية في هذه البلدة ومن جراء وجود سكان مسيحيين في هذه المنطقة على جانب كبير من كثرة العدد . وكنا نحن نعتبر ، في نظرهم . الحماة التقليديين وذلك بموجب اتفاقية الامتيازات (٣) .

وسواء أكان لنا في تلك الحقبة ، التي تهمننا وتمسنا ، قنصل أو نائب قنصل فان هذا القنصل أو نائب القنصل كانا في أغلب الاحوال مكلفين في الوقت نفسه بمهام آثارية ، وهي ما كانت عليه على الأخص حالة (بوتنا) و (بلاس) (٤)

(٣) عقد ملك فرنسا -فرنسوا الاول - وسليمان القانوني- اتفاقية في عام ١٥٣٥ منحت فرنسا بموجبها امتيازات واسعة كان من بينها السماح للبعثات التبشيرية الفرنسية ورجال الدين المسيحيين بحرية التنقل في الاراضي العثمانية . وقد بقيت العلاقات بين الدولتين ودية منذ ذلك حتى تعكرت بقيام نابليون بغزو الاراضي المصرية التابعة للسلطان العثماني . (س١٠)

(٤) (أ) بول اميل بوتنا Paul Emile Bottr « ١٨٠٢ - ١٨٧٠ » كان قنصلا لفرنسا في الموصل . وخلال تلك الاونة تولى أعمال التنقيب في اطلال خرسباد (دور -

أما البصرة وهي المدينة التي كانت قد سقطت من علياء مجدها القديم فقد كتب أحد وكلائنا عام ١٨٤٠ يقول انها « لم تعد سوى أكوام من الخرائب وأن سكانها قد تناقص عددهم نتيجة لغارات الحميات فاصبحوا يعدون (٥٠٠٠) نسمة ، الثلث منهم يتألف من العبيد السود البشرة المجلوبين من مسقط ومن زنجبار » . أقول لقد كانت البصرة مركز اقامة الوكالة القنصلية المودعة مهامها في معظم الحالات الى عهدة أحد الأفراد من الرعايا العثمانيين الذين شملتهم الحماية الفرنسية .

وباستثناء فترات التوتر الدبلوماسي كانت هذه المراكز الثلاثة لا تمثل بالنسبة لباريس مصلحة مهمة أو شيئاً مذكوراً . ففي عدة مناسبات أعاد الوزير الى ذاكرة وكلائه أن مهمتهم تنحصر بصورة جوهرية في « تنوير الحكومة عما يجري في هذا الجزء القصي من الامبراطورية العثمانية » ، وان يشملوا بحمايتهم رعايا السلطان الكاثوليكين ولكن بدون تطرف وتظاهر بالغيرة والحمية . إذ كتب الوزير عام ١٨٤٥ الى قنصلنا العام في بغداد يقول : « أما حمايتنا الدينية فان الأمر الذي لامناص منه هو التوفيق في ممارستها بين الحكمة وبين مراعاة الاعتبارات التي يتطلبها الموقف ليس فيما يتعلق بحقوق السيادة والادارة التي يفرضها الباب العالي على رعاياه وإنما بالاضافة الى ذلك بخصوص الصعوبات التي تنجم من جراء بعد مسافات الاماكن

شروكين القديمة (١٨٤٣-١٨٤٤) فكشفت عن آثار عظيمة . وبالرغم من خطورة اعماله بالكشف عن عاصمة آشورية جديدة فانه مات ولم يعلم بذلك اذ كان يظن انه يتنقب في جزء من اجزاء مدينة نينوى القديمة . (س١٠)

ب - بلاس (فيكتور) ١٨١٨-١٨٧٥ (Place (Victor) كان قنصلا لفرنسا في الموصل وقد استأنف عمليات التنقيب في خرسباد (١٨٥٢ - ١٨٥٤) وكشف عن آثار عظيمة ، شحنتها على الارماث « الاكلاك » من الموصل الى البصرة ، تمهيدا لنقلها بالبواخر الى فرنسا ، ولكنها غرقت في القرنة . وتعتبر هذه الحادثة من أكبر الكوارث الانثراوية في القرن التاسع عشر ، ولم تسلم منها سوى قطع وصلت الى متحف اللوفر . (س١٠) .

فتعرقل بصورة حتمية أعمال سفارة الملك ومهام الباب العالي نفسه .
وحدث مشابه لهذه الحالة عام ١٨٥٤ حين ارتكز نائب قنصلنا في الموصل
على اتساع دائرة أعماله في المنطقة وعلى الصعوبات الناجمة عن المواصلات
فكتب يقترح تأسيس خمس وكالات قنصلية نفقاتها تتجاوز ال (٦٠٠٠)
فرنك ، فكان جوابه الزجر من جانب باريس التي اوصته « بتجنب كل ما
من شأنه أن يهدف الى تضخيم أهمية المركز المعهود إليه تضخيماً يتخطى
الحد المعقول » .

ولكن القنصل استقبل هذا التقرير بعدم اقتناع وبغير إذعان فرد عليه
بعنف وشدة قائلاً : « انى ، يا سيادة الوزير وان كنت معترفاً كل الاعتراف
بأن هذه التوصية قد اوحتها الى معاليكم اناة حذرة يقظة وحكمة عملية
عظيمة إلا انني سأحاول الرد عليها . . لما كنت مقتنعاً غاية الاقتناع فينبغي
— وارجو من السيد الوزير أن يعذرني في ذلك — أن أعرض وجهة نظري
على الوجه الأتم وبعد أن أكون قد أبرأت مسؤوليتي (كذا) فأني سأفوض
أمري الى الله عن اختيار وطوعية فأبحث في جهات أخرى عن الوسائل
المجدية للقيام بالأعمال النافعة والا أظل شخصاً خاملاً لا جدوى فيه ، ولو
أن حالة الخمول هذه لو تمت للامتنى كل الملازمة لا سيما تحت شمس آسيا
المخدره . وبالإضافة الى ذلك فانكم يا سيادة الوزير عارفون تمام المعرفة في
هذه الآونة أن صحي قد تردت الى أسفل الدرجات (كذلك كذا !) فهي
لا تسمح لي بالبقاء في الموصل ولعل مشروعى لن يكون أكثر من توصية
قنصلية ستوضع على سبيل الذكرى في محافظكم ، بل لعل هذا المشروع سيرز
في المستقبل الى حين الوجود . أنا الذي كنت أرى دائماً وابدأ أفكاري
ومشاريعي يضرب بها عرض الحائط بادىء بدء ثم تطبق بعدئذ بنجاح » .

والواقع إن نائب قنصلنا قد توهم هذه المرة ، وذلك لأن مشروعه لم يأخذ طريقه الى التحقيق ابدأ .

ومماثل لذلك ما جرى عام ١٨٥٧ لقنصلنا العام في بغداد مسيو (تاستو) فانه حين خيل إليه ان من الأمور النافعة أن يتفضل بترشيح نفسه كوسيط شبه رسمي بين بريطانيا العظمى وفارس — وكانت الحالة حالة حرب — قد وجد نفسه يوبخ توبيخاً عنيفاً من قبل وزيره الذي كتب إليه يقول :

« لا بد أن تدرك يا صاحب السيادة أنك حين وضعت نفسك خارج الدوائر التي يمكن أن يمارس فيها العمل الدبلوماسي لم تكن تنتظر مني تعليمات عامة في شؤون فارس . ان وظيفتك لا تتعدى المراقبة والملاحظة . ولم يكن عليك إلا أن تنقل الي المعلومات التي قد يهمني الاطلاع عليها . وفي الحالة التي تحتاج فيها الى تلقي تعليمات عن أحد المواضيع الخاصة كان بوسعك حسب مقتضيات الاستعجال أو طبيعة الحادث أن تراجعني أو أن تتصل بسفارة جلالته في الاستانة » .

أما بعض وكلائنا فكانوا على العكس من ذلك لا تحلق بهم إلهام في أهمية وظائفهم فان أحدهم الذي كان قد أمضى قرابة العشر سنوات في بغداد والذي كان قد بلغه ان وظيفته قد هبطت الى مجرد نائب قنصل كتب يقول : « لقد قضيت سبع سنوات عجاف في اتفه وظيفه وفي اسخف دائرة لا محل لها من الاعراب من وجهة نظر جغرافية قنصليات الشرق . واني تخلصاً من الاوهام التي ربما تراودني ارى ان ابرء ذمتي فاعلن على ملأ الاشهاد انني على وجه التقريب لم اكن شيئاً مذكوراً ولا فائدة ترجى مني . ولو كانت القنصلية قد تحولت قبل ذلك بسبع سنوات الى نيابة قنصلية لكان الخير كل الخير في ذلك .

ولكن الجميع بصورة عامة كانوا يشعرون شعوراً عميقاً بمسؤولياتهم
 وبعظمة القطر الذي كانوا يمثلونه . فقد كتب مثلاً معتمدنا القنصلي في البصرة
 (مسيو فوتانيه) عام ١٨٣٦ يقول : « اني لست سوى احد الوكلاء الأشد
 مغمورية من وكلاء وزارة الخارجية . وقد زرعت في آخر زاوية من زوايا
 المعمورة . إذ انني قذفت الى بلدة قد تناولتها يد الخراب فدمرت نصفها
 وليس في جيبي سوى خمسين ليرة وبعض الألبان التي لم يستطع أحد ان يفك
 رموزها حتى الآن ؟ (٥) ولم يكن لدي لشد ازري ودعم كياني اي معين .
 فلا ابهة وفخخة السفينة الحربية البريطانية (٦) ولا النفوذ الذي يصاحب تجارة
 عظيمة ولا مساندة ابناء وطني او معاضدة الاوروبيين ما دام لا يوجد احد
 منهم هنا . هذه هي الحقيقة ولا يستطيع احد ان يتصور انعكاس من هذه
 الاحوال والظروف ولا انكده خطأ ولا أسوأ نفوذاً او اعتماداً وثقة . ولكنني
 معتمد فرنسي وهذا العنوان وحده يعدل لدي اكثر من اسطول . بل أكثر
 من امة كثيرة العدد . بل اكثر من تجارة مزدهرة ولكن لا تحمل هذا
 العنوان »

إن هذا الزهو الوطني يفسر ويبرر الشعور المدهش الذي اثبته ممثلونا
 كلما كانت كرامتهم في كفة القدر . وكم كان بودي ان اورد في مجرى
 قصتي هذه بعض الأمثلة ! ولكن فضلاً عن ذلك ينبغي ان نتذكر في هذا
 المجال الدور الذي لعبه « ماء الوجه » والذي ما يزال يلعبه في الاقطار

(٥) لم يوضح المؤلف المقصود بالألبان التي لم يستطع احد ان يفك رموزها ،
 فلعله قصد بعض القطع الاثرية المنقوشة بالكتابات السامرية التي يجهلها . (س١٠)
 (٦) يعبر عن حسده لمنزلة القنصل البريطاني ونفوذه بين اهالي البصرة ، وللتعبير
 عن قوة بريطانيا كانت سفينة حربية ترابط على الدوام امام مبنى القنصلية البريطانية
 (س١٠)

العربية . فان مثل احدى الدول الأجنبية خصوصاً إذا كانت هذه الدولة مسيحية يفقد كل ما له من منزلة واعتبار وثقة واعتماد عليه إذا صفع صفة عنية امام الملأ وذلك بتوجيه اهانة إليه ولم يعاقب مقترفها مهما كانت هذه الاهانة طفيفة !

من اية اوساط كان يجرى انتقاء معتمدنا ؟ .

إذا استثنينا القناصل العامين وجمهرة القناصل الاثاريين فان قناصلنا كان يتم اختيارهم على وجه العموم من بين المجريين . من اولئك الذين قضاوا الشطر الاعظم من نشاطهم في قنصليات الامبراطورية العثمانية وغالبا ما يكون نشاطهم طويلاً ، وقد يكونون أحياناً من ارومة شرقية كما تبرهن على ذلك اسماؤهم امثال (سيوفي) (٧) او القايم : هاجوت بليسيه ، ليزيماك . تافرنيه « وهو الذي كان في (سيفيتا فيكشيا) العون والخصم لستاندال في نفس الوقت . وكانوا ينقلون حسب امزجة رؤسائهم او حسبما تمليه ضرورات الخدمة . فمن حلب الى بغداد الى ديار بكر الى طرابزون . وقلما كانوا يتصلون بفرنسا الأم . وكانوا يتكلمون العربية والتركية ، عامرة قلوبهم بالحنو والاشفاق على الفلاحين الفقراء المضطهدين من قبل الموظفين الذين كانوا في اغلب الحالات وحوشاً ضارية . وكانوا يعرفونهم تمام المعرفة لكثرة ما بلغهم عنهم او لفرط ما كانوا يلقونهم في دوائرهم السابقة .

ولهذه العلة كان يبدو هؤلاء الوكلاء قلقين جزعين احياناً لدى علمهم

(٧) نقولا سيوفي (١٨٢٩ - ١٩٠١) N.Siouffi ولد نقولا بن يوسف سيوفي بمدينة دمشق من عائلة عربية ، وشهرته سيوفي نسبة الى السيوف فلعل اجداده كانوا يصنعونها . وفي عام ١٨٦٦ منح الجنسية الفرنسية ثم عين بعدها في القنصلية الفرنسية ببغداد ١٨٧٣ ثم بحلب ١٨٧٥ واخيراً في الموصل عام ١٨٧٨ وقد وصل الى درجة قنصل ثم احيل على التقاعد وسكن بقرية (ببدا) ببلدان حتى عاجلته المنية عام ١٩٠١ ، وله عدة مؤلفات بالفرنسية والعربية . (راجع سعيد دبوحي الذي حقق كتاب سيوفي : مجموع الكتابات المحررة في ابنية مدينة الموصل « . بغداد ١٩٥٦) . (س ١٠)

بتعيين الشخص الفلاني والانسان العلاني المشهور بالتعصب او كراهة البشر والياً في الالوية التي يعملون فيها . ولم تكن باريس تستطيع تطمينهم على الدوام بل كانت تدعوهم الى التذرع بالصبر والروية . فعلى هذه الشاكلة ردت باريس عام ١٨٤١ على قنصلنا العام في بغداد الذي شعر بفرع من جراء قدوم احد الولاة الجدد الى هذه المدينة وهو الذي نال في مركزه السابق شهرة فظيعة لا يحسد عليها . اذ كتب الوزير يقول : « إن ما نخشاه هو ان تساهم تصرفاته السالفة في عدم جعل علاقاتكما على جانب كبير من السهولة كما كانت عليه مع سلفه : ولكن لا بد انك قد تدرك كل الادراك ضرورة الوقوف موقفاً حازماً وحكيمياً في الوقت نفسه لاسيما بخصوص الامور التي تمس الحماية الدينية » . وبوسعنا ان نتصور بأي توجس كان القناصل يتلقون امثال هذه النصائح .

وهذه المعرفة التامة بالاشياء وبالرجال من جراء طول معيشة معتمدينا في تركيا جعلت الانطباع عنهم احيانا كأنهم كانوا يشعرون بانهم يحيون في بلادهم الأم ذاتها . فهم يقولون بصورة عفوية « ولايتنا » « مدينتنا » . (والينا) . بل حتى انهم كانوا يقولون ما هو افضل من ذلك « ادارتنا » . كانوا يتوقدون حماسة لاجل قضية تعصير الامبراطورية . كانوا يعنفون الموظفين العثمانيين الذين يهملون او يرفضون تطبيق الاصلاحات التي فرضت الدول الغربية على السلطان تبنيها . وكانت لصيغ التعبير عن الاماني التي كانوا يتمنونها لرفاهية ورخاء وامن الامبراطورية العثمانية لهجة تنم عن الاخلاص الذي لا تشوبه شائبة . بل كانت هذه التمنيات بالغة الشعور بالتأثر في معظم الحالات .. كانوا يتصرفون طوال هذا الفترة وكانهم انصار مؤمنون كل الايمان بالحلف الفرنسي التركي .

كل هذا التحسس النبيل كان يجري في دمائهم عندما كانوا يواجهون السكان الذين يضررون لهم العداة ويقابلون الولاة الذين لم يكن لهم اي استعداد للنهوض باعباء هذا الحلف ومقتضياته .

وبصورة عامة فان هؤلاء الموظفين المرؤوسين كانت تجري عليهم مرتباتهم بطريقة سيئة : كان يحدث انهم لايتسلمون رواتبهم الا بعد تأخير طويل الامد ، ففي عام ١٨١٤ وقبل تنازل نابليون بوقت قصير كتب سفيرنا في الأستانة الى قنصل بغداد يأمره بان يلقي القبض على نائب قنصلنا في البصرة اذا استطاع الى ذلك سيلا ، هذا النائب القنصل الذي ترك مقر وظيفته بحجة انه لم يتلق رواتبه منذ ستة اشهر . وقد ابدى السفير هذه الملاحظة ، وهي ان هذه الحالة هي نفسها حالة جميع مساعديه ولكن احداً منهم لم يتذرع بهذه الذريعة فيلوذ بالفرار تاركا مركز عمله !

وقد سبق ان اتاحت لي فرصة الاشارة الى ان حكومة (الملكية العائدة) وهي العاضة بنواجذها على أموال الدولة كانت قد عادت الى النهج القديم الذي بموجبه كانت حماية مصالحنا في بغداد يقوم على ضمانها القاصد الرسولي ، وهذا القاصد الرسولي لم يكن ليتلقى على القيام بهذا العمل اي مرتب . ومع ذلك ولما كانت مهمته تؤدي الى بعض النفقات فقد وافقت الحكومة عام ١٨٣٥ على ان تمنحه (٣٠٠٠) فرنك مسانهة (سنويا) تغطية لمصروفات هذه الخدمة . فالتهبت عواطف القاصد الرسولى وانبعث يغرّد بالحمد والشكران « على هذه المنة الكريمة لقاء النهوض بهذا العمل الشريف » و « توسل » الى الوزير « بالتفضل بقبول احرا ما يكنه فؤاده من الشعور بالاعتراف بالجميل والتكرم بتقبل تمنياته المشيوبة التي ينثها يوماً على عتبات الهياكل لاجل رفاهية فرنسا ورخائها وهناء ملكها ووزرائها »

ولكن رغم ذلك فقد كان هناك شجن يقض مضجع هذا الرجل الكريم إلا وهو ان المبلغ الذي نفع به على هذه الشاكلة لايسمح له بأي مصروف لتمثيل فرنسا فقد كتب يقول : « في السنين الخوالي كان للقنصل ترجمانان اثنان رهن اشارته ويتقاضي كل منهما ٩٠٠ فرنك مسانهة ولكن كل شيء قد ارتفع سعره في هذه الايام الراهنة (هكذا) فيبغي على الاقل حسابان ١٠٠٠ فرنك كمرتب يتقاضاه فراش و ١٢٠٠ فرنك كماهية يقبضها ترجمان » ويضيف الى ذلك بكآبة ملحوظة : « ينبغي اذن ان اروض نفسي على الذهاب الى السلطات المحلية دون فراش وكأني احد الافراد العاديين بل دونهم منزلة وان اوصل عادة التثبيت باول شخص اصادفه لجعله بمثابة ترجمان . أول شخص ييدى استعدادة للقيام تجاهي بهذه الخدمة .

وبوصفي مبشراً بسيطاً فاني قانع بهذه الحالة والحمدلله . ولكنني بوصفي مواطناً فرنسياً اشعر بأن قلبي يمزقه الألم من وجود هذا العوز . من ظهور هذا البؤس في التمثيل الضروري كل الضروري في هذا القطر » . ولكنه يستسلم ويفوض امره الى الله فيختم كلامه قائلاً : « سأمتنع في المستقبل عن التحدث اليكم عن هذه السفاسف والتفاهات اذا تفضلتم فتكرتم علي باعلامي بأن هذه الخزعبلات لا تثير اي إلتفات اليها لديكم وان من فضول القول الافضاء بها اليكم » .

ولكن معاليه لم يتفضل ولم يتكرم بالاجابة ، ولذلك فان المبشر المسكين لم يعاود الحاحه ، وكان هذا الشح نفسه هو القاعدة التي يرتكز عليها كل ما يخص نفقات الموظفين في مراكزهم : ففي عام ١٨٤٨ جأر وكييلنا في الموصل بالشكوى من ان نفقاته في الخدمة التي ارتفعت في عام ١٨٤٥ الى ١٨٠٠٠ فرنك سنوياً قد انخفضت بصورة متوالية الى ١٢٠٠٠ فرنك ثم الى

٦٠٠٠ فرنك وهو يطالب بمضاعفة هذا المبلغ الاخير ولكنه لا يحصل على اية
ترضية لمطاليه . وكذلك الحال في عام ١٨٨٣ فان احد اخلافه كان يتمنى لو
استطاع ان يلبي دعوة وجهها اليه في عدة مناسبات رؤساء ورهبان طائفة
الكلدان فشرح ما هو فيه من ضيق ذات يد وذلك ضمن هذه الكلمات :
لقد كنت أوجل دائماً الاستجابة لهذه الدعوات وذلك بان أتذرع تارة
بهذه العلة وطوراً بالعلة الاخرى . ولكن في كل هذه الحالات كنت شديد
الاحتراس من رفض هذه الدعوات لثلا اجرح شعور الداعين اياي . ومع
ذلك فان العائق الحقيقي كان عدم استطاعتي القيام بهذه الزيارات دون ان
أكون مرغماً بوصفي مندوباً فرنسياً على توزيع العطايا والمكافآت المناسبة التي
يتطلبها الظرف والتي لن ترقى الى اقل من ٤٠٠ فرنك لكلتا الزيارتين .
ولكن باريس لم يخفق فؤادها رحمة به واشفاقا عليه بل رفضت قائلة :
« استناداً الى حالة الاعتمادات المخصصة للنفقات من هذا القبيل فاننا
نرفض هذا الطلب ! »

وفي ايام الامبراطورية الاولى وجد قنصلنا في بغداد نفسه والحكومة
ترفض ان تخصص له اعتماداً يبلغ خمسة فرنكات التمسها لشراء عصا ذات
مقبض مطلي بماء الذهب تخصص للترجمان الثاني . هذا بالرغم من واقع
ان المترجم الاول يملك مثل هذه العصا وان ابهة المراسيم والاحتفالات
القنصلية كانت توشك ان تصاب في هيتها من جراء هذا الرفض .

ومقابل ذلك كانت حسابات قنصلنا محل تدقيقات طويلة عريضة . واذا
غفل احد القناصل نتيجة زهول او جهل عن دفع (٢٠) او (٣٠) سنتيما
الى احد رعايانا بمناسبة اجراء معاملة رسمية مثلاً فالويل له ، فانه يرى نفسه

وقد لفت نظره لفتا فظا جافيا صارماً بوجود العودة الى النظام وأشعر بأن
البلغ موضوع البحث سيستقطع من راتبه .

وكانت هذه الدوانيقية شديدة الوقع على انفسهم . وزاد شدتها حدة
كون زملائهم البريطانيين الذين لم يكونوا في تلك الفترة مرتبطين بوزارة
الخارجية البريطانية (وهذا من باب الغرائب) ولكنهم مرتبطون بحكومة الهند ،
يحيون حياة رخية رافهة . وكانت تحرس البريطانيين ثلة من جنود الهند
وتحت تصرفهم سفينة حربية في نهر دجلة تجاه محل اقامتهم . وكانوا يغدقون
الهدايا والمنح والبهات على رؤساء القبائل بكرم وسخاء . وبجانب أمثال
هؤلاء « الخواتم » البريطانيين كان ممثلونا يظهرون ازاءهم بمظهر الاقرباء الفقراء
فيتألمون لذلك اوجع الألم وامضه لاسيما انهم كانوا حتى السنوات الاخيرة
من هذا القرن القناصل الاجانب الوحيدين في بغداد حيال الانكليز . ولهذا
قال بحق قنصلنا العام في سنة ١٨٤٦ وهو البارون (دى فيمار) مؤكداً :
« إن الموضوع من الاموال تحت تصرف زميله الانكليزي يساوى الموضوع
من الامول تحت تصرف السفارة الفرنسية في الاستانة » .

وقد اضاف الى ذلك والكآبة تقطر من كلماته ؛ « ارى لزاما علي أن
اقول دون ان اخشى من معاليكم ان تعزوا الي بأن الدافع الى قولي الشعور
بمصلحة شخصية — ان القنصلية العامة لفرنسا في بغداد وهي بعيدة كل
البعد ان تفقد الاهمية التي كان يبدو انها تملكها عام ١٨٣٩ وهي الفترة
التي ارتأت فيها حكومة الملك ان من المناسب انشاءها اقول ان هذا المركز
هو اكثر من أي وقت مضى بمثابة مركز مراقبة من اعلى درجة من درجات
المصلحة السياسية وهو جدير كل الجدارة بعمل نافع وقمين باقالته من عثرته
واتشاله من الحالة المزرية التي اوصلته اليها التقديرات في منحه الاعطيات التي

يستحقها من يعمل على ادارته ويحمل لقب رئيسه « (٨)
ولكن الذي حدث في الواقع هو ان القنصلية العامة قد حل محلها بعد
عامين من هذا التاريخ نيابة قنصلية بسيطة !

(٨) الرسالتان الواردتان في هذا القسم هما :

- أ - الرسالة المؤرخة في ٧ نيسان ١٨٥٧ .
- ب - الرسالة المؤرخة في ١٠ تشرين الثاني ١٨٤٦ .

القسم الثاني

السفر

لغرض الوصول الى العراق كان على الفرنسيين في الفترة التي نحن
معيون بالتحدث عنها هنا أن يختاروا بين أحد طريقتين أحدهما الطريق
الذي كانت تتبعه شركة (مال ديز ند Malle des Indes) أي بريد الهند ،
المشهوره . وهو الذي كان يمر بمرسيليا فبورسعيد فبرزخ السويس (ومنذ عام
١٨٦٧ عبر القنال) فالبحر الأحمر فبومباي فالبحيرة . وكل ما كان موجوداً
هو السفن الشرعية ، وكانت السفن الشرعية هي هذه القوارب الصغيرة
(الحبيبة الى قلب أحد أصدقاء العرب مونفريد Monfried) وهي الوسائل
الوحيدة التي تعتمد عليها الأسفار البحرية بين موانئ شبه الجزيرة العربية .
ولكنها كانت على أعظم جانب من عدم توفير وسائل الراحة علاوة على كونها
غاية في بطء الحركة ، وأنها لم تكن تستعمل إلا من قبل سكان البلاد
الأصليين . فكانت الحاجة تتطلب السفر الى بومباي والانتظار هناك لاحدى السفن
الانكليزية التي كانت تقوم برحلة واحدة في كل شهر بين الهند والبحيرة . (١)
بالإضافة الى ذلك كان لهذه السفن سمعة سيئة مخزية وهي أن موجهي
ادارة الشركة الذين لم يكن لهم منافسون يخشون منهم ، فرضوا على
المسافرين الأسعار التي أملتها عليهم أهواؤهم . ففي عام ١٨٩١ كتب أحد
قناصلنا يقول : « لقد اشتطت انكلترا وتعسفت في موقفها فان الأسعار التي
فرضتها على شحن البضائع وعلى نقل المسافرين بالغة الفداحة خصوصاً اذا

(١) المؤلف لم يذكر الطريقة الثانية (المترجم) .

أخذنا بنظر الاعتبار قلة توفير وسائل الراحة في هذه السفن . فهي تسيء
معاملة التجار من سكان البلاد الأصليين وتعامل الأجراء والفعلة والكسبة
بقسوة ضارية بل تذهب في التعسف الى حد فرض لغتها عليهم باصرار على
حضر التخاطب بلسانهم . وتطلق أيدي الزبانية الذين هم على جانب كبير
من سوء الخلق في فرض الأتاوات على المسافرين فيفرضون ما يشاؤون من
رسوم على الأمتعة والبضائع والأحمال ويتخذون من الحزم والرزم والصناديق
وقوداً لسفنهم ، هذا اذا لم يلجأوا الى محتويات تلك الحزم والرزم
والصناديق فيسرقونها . (٢)

ويضيف ممثلنا الى ذلك قائلاً : « ان في مقدور أية شركة فرنسية
يهمها الأمر في مثل هذه الحالات أن تتدبر أمرها فتعزم على سفن خطوطها
— من والى الشرق الأقصى — أن تجعل لنفسها مرسى في البصرة وتوقفاً
الى حين .. على أن محاولة من هذا القبيل كانت قد جرت عام ١٨٩٥
ولكن يبدو أنها لم يكن لها ما يقفوها .

وحين يصل مسافرنا الى البصرة لا تكون متاعبه قد انتهت بعد إذ
يتحتم عليه أن يعلو أثباج نهر دجلة أو نهر الفرات . وكان السفر عن
طريق اليابسة مستحيلاً في حكم الواقع وذلك لانعدام الأمن من جهة
. وللشعور بالخوف من وجود الأمراض والأوبئة المتفشية حول شواطئ النهرين
المذكورين من جهة أخرى . وان مراكزنا قد أشارت عدة مرات الى هذه
الحالة المؤلمة .. ففي عام ١٨٥١ أشار ممثلنا في بغداد مسيو تافرنيه الى أن :
« القلاقل تجعل الطريق البري والطريق النهري غير قابلين للاجتياز . وعلى
هذا فان كل اتصال بين بغداد والبصرة قد انقطع منذ شهرين . وأن بريداً

(٢) الرسالة الموجهة في ١٤ حزيران ١٨٩١

أرسله باشا البصرة قد أرغم إرغاماً على التقهقر والتراجع بعد أن خاض غمرات أخطار كبيرة .

إن هذه الاتفاضة تجعل السلطات في أسوأ حالة من حالات القلق والاضطراب والحيرة نظراً للعجز المطلق الذي تجد نفسها تتخبط فيه سعيّاً وراء احتمال الحصول على أي نصيب من النجاح تحرزه ضد الثوار . «

وإننا لنسمع كذلك نفس النخمة من نفس الناقوس في عام ١٨٩٢ : « ان احدى قبائل نهر دجلة الأسفل قد هبت كلها تقريباً هبة رجل واحد نائرة على السلطة في أعقاب حبس اثنين من أبناء شيخها اللذين رفضا دفع الديون المتأخرة المترتبة عليهما تجاه الخزينة من جراء إلتزامهما لحقول الرز في ذلك الاقليم . وقد انقطعت المواصلات النهرية وغيرها بين بغداد والبصرة خلال خمسة عشر يوماً . وأن سفينة تركية قد تناوشتها عيارات البنادق النارية فعادت القهقري وأنفها راغم . وان عدداً من السفن الشراعية التي تستخدم لنقل الحبوب كان نصيبها النهب والسلب واحراق ربانيتها وهم احياء داخل التناير . ومسك الختام شوب النار على شواطئ دجلة من الجانبين وسيلان الدماء على الساحلين .

وكان الشيخ بنفسه يحرض على التخريب والفساد ويدعو الى المذابح دون أن يبدو عليه أدنى رعب أو فزع من وجود السفينة الحربية العثمانية والوالي قابع على مقربة منه في البصرة . . وذلك لأنه على علم تام بكيفية تنفيذ أوامر الباب العالي بشأنه . لقد ثار ثلاث مرات خلال مدة لا تتجاوز الأحد عشر عاماً . وقد أنقذت رأسه الرشاوى ثلاث مرات « . (٣)

وهكذا فان الطرق الصالحة للملاحة لنفسها لم تكن لتعني كثيراً من

(٣) الرسالة الموعرخة في ٢١ مايس ١٨٥١

الأمن والطمأنينة لاسيما ان التوقف حين يميل ميزان النهار الى الهبوط كان أمراً محتماً كما كان من المحتم أيضاً تمضية الليل على /أديم الغبراء .
وعلاوة على ذلك فان الملاحه خطيرة في أكثر الأحوال خصوصاً في نهر دجلة بحيث يصبح في كل لحظة من لحظات الريح انقلاب السفن بسبب قوة التيار من الأمور المتوقعة . أما في موسم الخريف فهناك خطر جنوح السفينة وغوصها في الرمال الرخوة .

وأمثال هذه الحوادث المزعجة حدثت لأحد وكلائنا في نهر الفرات ، وكان القدر لم يكتف بايذائه الى هذا الحد فسلط عليه سكان الضفاف الذين سلبوه كل ما كان لديه ومن ضمن ذلك ملابسه فوصل الى بغداد عارياً كما ولدته أمه . فاذا أفلت الانسان بقدره قادر من هذه المكاره فالمؤمل حينئذ أن يقطع المسافة خلال ستة أيام .

وقد حاول الانكليز عدة محاولات مستميتة إنشاء خط نظامي عبر النهرين تمخر في مياهه السفن التجارية التي وقودها من الخشب ولكنهم عانوا عدداً لا يستهان به من خيبات الأمل ولم ينتظم سير هذا الخط إلا في السنين الأخيرة من القرن .

لقد كانت المسافة إذن طويلة كل الطول . كان ينبغي أن يصرف شهران في الملاحه على الأقل . وعلاوة على ذلك فان اجتياز البحر الأحمر في الصيف على غوارب بواخر غير مكيفة للمناخ كان عملاً في غاية المشقة . وعلى ذلك فقد كان الكثير من الرحالة يفضلون الطريق الثانية من بيروت الى دمشق فالصحراء وهي أقصر مدة (إذ تستغرق شهراً) ولكن هذه الطريق لم تكن هي أيضاً خالية من المتاعب والخطوب والأخطار .

كان عبور الصحراء من حمص الى دير الزور يتطلب أسبوعاً كاملاً .

كان المسافرون يمضون الليل هاجعين في الخانات التي وصفها أحد وكلائنا في الموصل وهو (مسيو سيوفي) الذي اجتاز المنطقة السالفة في عام ١٨٩٠ بقوله : « يدخل الداخلون هناك من باب ضخم مصراعه مبطان بصفائح من الحديد . فيصلون الى فناء واسع يحيط به رواق تتخلله قناطر وعقود ويتوسطه حوض كبير يجرى فيه الماء ليلاً ونهاراً . ويرى الراؤون حول هذا الفناء غرماً واصطبلات واسعة مشيدة من الحجر في أحجام كبيرة ولكن قد تناولت معظمها يد التخريب والتقويض » .

« أما الليالي في هذه الخانات أو الفنادق البدائية فلم تكن دائماً تخلو من المزعجات أمثال الحشرات المحلية » .

ويكشف لنا مراسلنا بهذه المناسبة عن سر من الأسرار أفضى إليه به أحد الأعيان فيقول : « لقد أكد لي أنه على بعد نصف ساعة من قريته يوجد محل يتميز بميزة فريدة في بابها تلك هي لإنعدام وجود البراغيث بصورة قطعية . وهذا الأمر يفاجئ المسافر بيشارة هي في غاية العذوبة والحلاوة والنفاسة اذا تذكرنا أن هذه الحشرة منتشرة كل الانتشار في سوريا بحيث أنها تغدو في بعض الأحيان الطامة الكبرى » .

وهناك بين هواة عجائب وغرائب الأقاليم النائية من يفضلون البعير الوئيد الخطى الوقور الهيئة على الحصان اللعوب الرشيق . وسر تفضيلهم هذا هو أن البعير حمالة للأثقال وقد قص علي أحد أعيان العراق أن ذويه قرروا إرساله — وهو يدرج الى الثانية عشرة من عمره — الى الاستانة ليتلقى هناك علومه فعهدوا به الى أحد أصحاب القوافل الذي وضعه في سلة معلقة على عاتق أحد الجمال وأنه كان يتنقل على هذه الشاكلة من مكان الى آخر مدة تربو على الشهر .

اما عبور الانهار وهو من الامور النادرة لحسن الحظ فانه مضیعة للوقت الطویل ، لأن هذا العبور يتم بواسطة قوارب بدائية كل البدائية . والحقیقة ان سكان البلاد الاصلية لا یأبهون لهذا الأمر ، وذلك لانهم یتبعون طريقة كان یعرفها جنود اشور بانیال (٤)

ولعل من المفید ان تنصتوا معی الى مسیو سیوفی وهو یحدثنا قائلا : « وصل رهط من الاعراب مؤلف من رجال ونساء الى ضفة النهر . فنفخ كل منهم جرابه بقمه . وبعد ان كوروا ملابسهم حول رؤوسهم نزلوا الى النهر وقد اسندوا صدورهم الى اجرتهم المنفوخة بالهواء التي احتضنوها احتضان العاشق لمعشوقه وعبروا النهر على هذا المنوال وهم یرفسون الماء بارجلهم التي استعملوها إستعمال المجاديف » .

وحتى الصحراء نفسها لن تجعلك في مأمن من غائلة اللصوص وقطاع الطرق . ففي عام ١٨٥٤ روى لنا نائب قصلنا في بغداد وهو مسیو (نیکولا) فور التحاقه بوظيفته بانه : « قد هوجم مرتین من قبل الاعراب الذين جرأهم على الاعتداءات انحسار القوات الحكومية عن هذا الجزء من الامبراطورية العثمانية فزاد تغلغلهم يوما بعد يوم وانتشروا بكثرة على الطرق الخارجية ابتداءً من الاسكندرونة حتى ارباض بغداد .

وقد هوجمت قافلتی للمرة الاولى في رابعة النهار من قبل عشرة فرسان مدججين بالرماح والمسدسات . ولكن بفضل حراسي العديدين والاسلحة التي اجتهدت أن اسلح نفسي بها لدي مغادرتي باريس دب الذعر في قلوب

(٤) یشير الى احد الالواح المرمزية المنحوتة بصورة نائثة تمثل جنودا آشوريين یهاجمون قلعة من النهر وهم یسبحون على الاجرابة . وقد عثر على هذا اللوح في نمرود (كالح القديمة) وهي موجودة في المتحف البريطاني . وفي كل من المتحف العراقي ببغداد ومتحف الموصل نسخة جسیية منقولة عن الاصل . (س ١٠) .

المهاجمين لدى رؤيتهم عزمنا المصمم على الثبات في وجوههم . وذلك لاننا هاجمناهم وطاردناهم فلاذوا بالفرار فلولا دون ان يجرأوا على اطلاق النار علينا .

ولكن الحالة هذه لم تكن هي نفسها لدى الهجوم الثاني الذي حدث في غسق الليل في واد ارغما المناخ ارغاما على نزوله في آخر الليل ، ففي هذه المرة اعتمد الاعراب على ظلمة الليل الطاخية الحالكة ، وقد خيل اليهم اننا غصنا في سبات عميق فشرعوا بالتسلل خلسة بين افراد القافلة فتركناهم يقتربون حتى اذا اصبحوا على مرمى من قذائف البنادق اطلقنا عليهم النار اطلاقاً عاماً فردوا علينا وهم يمعنون في الهروب . ولكنهم لسوء الحظ أصابوا احد الرحالة الذين رافقوني وكان قد جانب الحيطه والحذر فاقترب منهم اكثر مما يجب وهو يطاردهم . ويتعقب آثارهم « (٥) فاذا لم يخالجنا الشك في صحة هذه الرواية فبوسعنا ان نقول بأفضلية السفر مصحوبين بقوات مدججة بالسلاح الوافر .

وبعد مسيرة اسبوع يصل المسافر الى الموصل . وبغية مواصلة السفر الى بغداد كانت تلك الفترة تحتم استخدام الكلك « وهذه تسمية لما يدعى بالطوف او الرمث . وهو مؤلف من الواح تستلقى على اجربة منفوخة بالهواء . وهذا الكلك ينساب مع التيار ويدار بواسطة استعمال المجاديف ادارة قد تسوء أو تحسن . وبالرغم من ان تركيب الكلك لايسمح له بتحدي جريان تيار الماء ولا ان يتقدم في انسيابه الا ببطء شديد فان هذه الوسيلة هي الضرب الوحيد من ضروب الملاحة النهرية الذي يستعمل لمتابعة جريان نهر دجلة . وان جميع البضائع التي تشحن من الموصل الى بغداد تنقل بهذه الوسيلة .

(٥) الرسالة الموءرخة في ٢٣ حزيران ١٨٥٤ .

وحين تصل الاكلاك الى بغداد تفتح افواه اجربتها فتلفظ انفاسها . اما اخشابها فتباع في محل رسوها . ويعاد ارسال الاجربة الى الموصل ولكن عن طريق البر على ظهور الدواب .

لقد كانت الأكلاك فريسة سهلة لقطاع الطرق وذلك ما يؤكد الحادث الذي وقع لاثنين من مواطنينا عام ١٨٩١ ودونكم التفصيلات : « لقد شد مسيو جي . ومسيو سي . رحال السفر من الموصل الى بغداد فارتقيا — كما هي عادة المسافرين على وجه التقريب في تلك الحقبة — ظهر احد الأكلاك مع من ركب معهما . ولكن حينما وصل هؤلاء الى محل يضيق فيه عرض نهر دجلة ويمضي فيه الكلك بين جبلين علم هؤلاء السادة الركاب — الذين سبق كلهم أو اعقبه حوالى اثني عشر كلكا محملة جميعها بالبضائع — بأن سلايين نهايين من البدو قد تجمهروا على الشاطئ الايمن على بعد مسافة قصيرة من اتجاههم . فربطوا الكلك على ضفة احدى الجزيرات وسمحوا للاكلاك جميعها بان تتجازهم . فاثالت على الكلك الاول الذي حاول العبور نيران القراصنة . اذ اطلقوا عليه اكثر من خمسين رصاصة . وارغموا ملاحيه على الاستسلام . وشرعوا بالاستيلاء على جميع الاكلاك التي اعقت ذلك الكلك بالتابع . واستخدموا هذه الاكلاك لعبور نهر دجلة وانتشروا على الضفتين . اما مسيو جي . ومسيو سي . وجماعتهما فقد قضاوا خمس او ست ساعات وهم يهيمنون على ضفاف الجزيرة الصغيرة على بعد ثمانين متراً من القراصنة الذين كانوا واثقين كل الوثوق من قدرتهم على ارغامهم على الاستسلام لدى استئنافهم الانحدار مع التيار وقد خيل اليهم عدم جدوى اطلاق النار عليهم . ولكن تلطف القدر فهبت زوبعة عاتية مروعة اثناء الليل . وبفضل هذا الاعصار المضاف الى الظلمات استطاعوا ان يجتازوا المنطقة المحتلة

من قبل اللصوص الشقاة دون ان يشعر بهم شاعر (٦)

لقد رأينا في السطور السالفة ان اللصوص لم يكونوا ليرعوا اية حرمة أو يراعوا اى اعتبار للجانب . ومع ذلك ففي بعض الأحيان كانوا يخفضون جناح الذل من الرحمة . ومصدق ذلك ما يقصه علينا مسيو تافرنية نائب القنصل في بغداد عام ١٨٥٠ اذ كتب يقول : « اثناء اجتيازنا الطريق الواقعة بين الموصل وبغداد صادفنا بعض اللصوص الذين كانوا قد فرغوا من سلب ونهب اصحاب كلك من الاكلاك كان موسوقا بالاخشاب . وقد بلغ من قسوتهم وفظاظتهم ان سلبوهم حتى اقمصتهم في وقت جليدي البرد . فاتخذنا اجراءاتنا للدفاع عن انفسنا . وفي الوقت نفسه رفعنا العلم الفرنسي .

فكانت هذه الاستعدادات السبب في حملهم على التوقف عن استعداداتهم الهجومية ذاتها فسألونا من نكون والى اين نحن ذاهبون . فاشرقت في ذهن احد حراسنا خاطرة عجيبة هي ان يجيهم بانتي باشا بغداد الفرنسي . حين ذلك ردوا علينا بان في وسعنا متابعة السفر دون خوف او وجل ، وبأن خيمتهم تحت تصرفنا اذا اردنا الاستراحة والاستجمام هنا . فتوجهنا اليهم بالشكر وتمنوا هم لنا رحلة ميمونة (٧)

ولما كانت السلطات غير قادرة على حفظ سلامة المسافرين فانها قد عهدت بهذه المهمة الى بعض القبائل البدوية التي تنفحها بالعطايا والهبات . فاذا عجزت هذه القبائل عن صيانة أمن المسافرين — وهذا ما كان كثير الحدوث — او سولت لاحد الولاة نفسه وقد ركبته الحماسة ان يستوفي الضرائب من هؤلاء الاعوان الذين يصعب تدليلهم وترويضهم فانهم يضربون

(٦) الرسالة المؤرخة في ٢٣ اذار ١٨٩١ الموجهة من مسيو بونيون النائب القنصل في بغداد .

(٧) الرسالة المؤرخة في ٣١ كانون الاول ١٨٥٥

بمهمتهم عرض الحائط . وقد لا يكتفون احياناً بان يدعوا القوافل التي عهد اليهم بتوفير الطمأنينة لها وحمايتها ينهبها الناهبون وإنما ياخذون هذا المجهود على عاتقهم فينبهونها بانفسهم .

ولابد اننا الان نستطيع ان نتصور جيداً كم كان معتمدونا يشعرون شعوراً مفرطاً بانهم بعيدون على هذه الشاكلة . فمراسلاتهم كانت تودع اما الى حملة البريد الرسمي للباب العالي الذين كانوا يدعون بالطارية (٨) والذين كانوا يقطعون المراحل على ظهور الجياد . واما ان تطرح هذه المراسلات في الحقبة الانكليزية . وإما أن تحملها القوافل المسافرة الى حلب او الى دمشق .

ولكن حملة هذه البرد كانوا في احيان كثيرة يعتقلون من قبل قطاع الطرق واللصوص فكان يتحتم اما ارسال الرسالة الواحدة مرتين واما أبرادها عن طريقين مختلفين . وهذه الحالة كانت تعقد مهمة القنصل واعوانه من السكرتارية . ففي عام ١٨٣٦ ظلت القنصلية تنتظر عدة اشهر لكي تتسلم في نهايتها جوابا من باريس .

وفي عام ١٨٥٣ كذلك انقضى اثنا عشر يوماً لكي يصل البريد من باريس الى الاسطانة واقتضى عشرون يوماً لوصول البريد من الاسطانة الى بغداد .

اما التلغراف فلم يصل الى بغداد الى في عام ١٨٦٠ ولم يصل الى البصرة إلا في عام ١٨٦٣ .

وكان حمل الرسائل باهظ النفقات : (٣٠٠) فرنك اجرة الساعي بين العراق وساحل البحر الابيض المتوسط .

(٨) الططارية : هم الموظفون المسوءولون عن نقل البريد .

القسم الثالث

القطر ، المدن ، المناخ

شاء نحس المصادقة ألا أجد في مراسلات معتمدنا الا الاقل من القليل من التفصيلات عن القطر . فان انعدام طرق المواصلات مضافا الى افتقار البلاد الى الامن والطمأنينة لم يحفزا وكلاءنا على التجول في ارجائها . وعلاوة على ذلك فان الاعتمادات اللازمة لهذه الأغراض كانت نزرة شحيحة . ولكن حب الاستطلاع كان في بعض الاحيان من اقوى الحوافز . ففي عام ١٨٦٢ صمم مسيو (دى لا بورت) (١) نائب قنصلنا في بغداد على القيام بجولة في منطقته . فكتب يقول : « ساستفيد يا سيادة الوزير من حسنات العلاقات الطيبة في ديار بابل وبلاد ما بين النهرين . ومن هناك ساهبط منحدرأ في الفرات الى النقطة التي يلتقى فيها هذا النهر بنهر دجلة . ومن ثمة سأدلف الى البصرة . ثم امضى صعدا في دجلة حتى اصل الى بغداد مارأ بخرائب سلوقيا وطاق كسرى . ولما كنت احسن اللغة العربية فباستطاعتي ان أستنطق هؤلاء السكان الذين يعرفهم العالم اقل المعرفة وان اتحقق بنفسى فأرى ان كانوا خليقين بتلقى بركات مدينتنا . وسابذل كل جهودى — يا سيادة الوزير — لقطف اشهى ثمرات الملاحظات من رحلتى هذه . ولدى رجوعى سأرسل الى معاليكم تقريرأ أوئل ان يكون مفيدأ

(١) دى لا بورت (لويس) De Laporte (Louis) : عالم آثار فرنسى الف كتابا عن حضارة وادى الرافدين عنوانه : La Mésopotamie نقله الى العربية الدكتور محرم كمال وراجعته الدكتور عبد المنعم ابو بكر ، وصدر في سلسلة ١٠٠٠ كتاب تحت الرقم (٣٥) (١٠٥)

وشائفاً من اربعة وجوه : الوجه السياسي والوجه التجاري والوجه الزراعي والوجه الأثاري .

ولما كنتم معاليكم قد احظتموني علماً بأنكم بعد الاجراءات المؤسفة التي شملت الميزانية بالتخفيض مرغمين على سلوك سبيل الاقتصاد والتقتير والتكشف فاني سأقوم بهذه الرحلة على نفقتي الخاصة . وسيكون جزائي الوحيد ، يا سيادة الوزير ، هو الاستحسان الذي سيتفضل معاليكم باسدائه الى نتائج ابحاثي وتقنياتي (٢)

إن الحمية والغيرة والشهامة ونكران الذات لدى خادم الدولة المتواضع هذا تسمح لنا بتكوين فكرة عن حالة هذه المناطق . فهو يصف لنا ديار بابل وكأنها (نورمانديا آسيا) ويرأها كما هي في الواقع مكسوة بقطعان الماشية . فاذا عمدنا الى تصديقه يتبين لنا ان قبائل شمر قد باعت في عام ١٨٦١ (١٦٠٠٠٠ ر) رأس من ذوات القرون من البهائم . كما باعت (١٥٠٠٠) رأس من الجياد والجمال وباعت (٤٥٠٠) طن من الصوف . وكان الشيوخ يشكون من عزلتهم التي هي ضارة بتجارتهم . وهم ينتظرون بفروغ صبر السكة الحديد (وهي التي لن تصل الى بغداد الا في عام ١٩١٤) والتي ستفتح لهم ابواب تصريفات جديدة للتجارة (٣) . أما استقبالهم للضيوف فهو استقبال عاطفي رقيق يتسم (بكل ما لدى القرون الاولى من اريحية وكرم) ويتابع قصلنا كلامه قائلاً :

(٢) الرسالة الموعرحة في ٢٩ تشرين الاول ١٨٦٢
(٣) في مطلع الحركة الاستعمارية بلغ التنافس الاستعماري أشده فيما بين الدول على الاستيلاء على مناطق النفوذ واستعمارها ، ومن بين تلك المناطق منطقة الشرق العربي وقد تجسد في تسابق الدول الاوربية على مد سكة حديد بغداد . وللقوف على تفاصيل المشروع والدوافع الكامنة وراءه يراجع كتاب الدكتور لؤي بحري « سكة حديد بغداد » المطبوع في بغداد عام ١٩٦٧ . (س ١٠)

والعرب منبشون في كل نقطة من نقاط هذه الاصقاع العاجة بأطايب الناس . فهم على اخلاق وشمائل ارق من أخلاق وشمائل الفلاحين المصريين . وهم في ديانتهم متساحون اكثر من تسامح الفلاحين المصريين أيضاً . وان الاصل الذي ينتمون إليه باد للعيان في كل مكان تقريباً ، ولكنه يبدو أشد ما يبدو في ديار بابل ، حيث تظهر الخطوط الجميلة للانسان القديم .. لقد زرت مدينتين مرموقتين عند المسلمين هما : كربلاء والنجف وفي كلتا المدينتين تجولت محفوقاً بتكريمات ومجاملات لا أستطيع التعبير عنها ، وذلك من قبل حكام تلك المناطق . وكذلك السكان فانهم لم يتلفظوا كلمة واحدة نابية قد تسيء إلى الانسان المسيحي الذي كان يطوف خلال الاماكن المقدسة . كل هذا بالرغم من قبعتي المعمولة من اللباد التي لم اشأ أن تركها والتي فرضتها فرضاً على سكان المدينتين المقدستين » .

ويصل قصلنا معتمراً بقبعته وهو يخترق الفرات « داخل القفة الرديئة وهي الزورق العربي الذي قوامه من الأسل وغلافه من الزفت المعدني » . وهي نفس القفة التي كان يستعملها رعايا حمورابي .

ويمضي لزيارة ما يعتقد أنه هو « برج بابل » ويدعى اليوم (بورسيا) (٤) وهو لا يخفى عن رئيسه خيبة الأمل التي اتابته فيقول : « لدى اقترابي من هذا البرج خالجي ، يا سيادة الوزير ، هذا الانفعال الغامض الذي تبعته في النفوس مقاربة شيء من الاشياء العظيمة . ولدى وصولي الى قاعدة البناية دهشت كل الدهشة من انني لم أجد امامي إلا كومة هائلة من الأجر .

(٤) بورسيا (وتعرف اطلاقاً اليوم برس نمرود) تقع الى جنوبي مدينة الحلة بمسافة ١٠ كم وقد نقتب في هذا الموضوع بعثة المانية قبل الحرب العالمية الاولى برئاسة الدكتور (روبرت كولدوي R. Koldewey) وكشفت عن جوانب البرج المدرج (الزقورة) ومعبد (اى - زيدا) المكرس لعبادة الاله (نابو) . وقد وصفها عدد من البلدانانيين المسلمين . (س ١٠)

فاحسست حينئذ احساساً مؤلماً بتبخر احلامي وانقشاع السحر الذي ملأ خيالي « وهنا يبدو مواطننا صارماً مغالياً ذلك لان زقورة (بورسيا) ما تبرح حتى الان تفيض جمالا وجلالا رائعين وهي غارقة في خرائبها وانقاضها .

وبعد مسيرة ساعتين وصل آتند الى ديار بابل حيث قام الاثاري الفرنسي فرنيل Fresnel (٥) قبل عشر سنوات من ذلك التاريخ بتتبعاته وتحقيقاته رغم انها لسوء الحظ كانت مجرد اخفاقات . فان هذه المدينة قد اثرت في نفسه تأثيراً عظيماً فاوحت له باعتبارات روماتيكية عن عدم ديمومة الانشاءات البشرية . فكتب يقول :

« لاشيء يدانى خرائب بابل يا سيادة الوزير . . ان هذه الخرائب هي جبال قد قلبتها الهزات الارضية رأساً على عقب ، فهي فوضى وعماء حقيقتان ، وهنا تتجلى في اكمل صورة من صور التشوش والاضطراب قدرة الله : ان نبوءة اشعيا (٦) قد تحققت » . وهو يذهب فيجلس بخشوع اسفل شجرة سدر هي لدى القبائل المجاورة ، موضوع خرافات واعتقادات فاسدة » . ويظل عالماً الاثاري يتفلسف فيقول :

« ان هذه السدرة العتيقة ما تزال تعرض على الانظار اوراقها التي عاثت بها القرون ، وان اغصانها لتحمل أنقاضاً من العيدان يبعث منظرها على القرف وهي غير بعيدة من اسس بعض الحيطان التي تؤكد متانة البناء القائم على عاتقها ، كما انها غير نائية عن بعض حطام الانصاب التي هي الآن ،

(٥) فرنيل (فولجانس) Fresnel (Fulgence) ١٧٩٥-١٨٥٥ دبلوماسي فرنسي كان قنصلاً لفرنسا ببغداد ، وتولى التنقيب ببابل عام ١٨٥٢ ، ولكنه لم يوفق في العثور على آثار مهمة . وقد قضى الشطر الاخير من حياته في فاقة وتعاسة . (س ١٠)

(٦) نبوءة اشعيا ، وردت في التوراة في سفر اشعيا ، وهي تخص عودة اليهود الى اورشليم ، وقد تحققت النبوءة في رأيهم ، وذلك بخلاصهم من الاسر على يد كورش الفارسي الذي قضى على دولة بابل الجديدة ٥٣٧ ق م . (س ١٠)

يا سيادة الوزير ، الآثار الوحيدة والبقايا الفريدة لعاصمة سميراميس والاسكندر الاكبر المقدوني . وهذه الشجرة واقعة في نفس المكان الذي يعتبره المؤلفون موضع الجنائن المعلقة . فيا لها من مقايسة ويا له ، يا سيادة الوزير ، من موضوع عميق من مواضيع التأمل يبحثان على التفكير ويشهدان شهادتين عن قابلية الاعمال البشرية للعطب وعن عظمة الاعمال الالهية . فقد غدت حضارة بابل اثرأ بعد عين بأجمعها : وما نكاد نرى إلا بعض قطع الاجر التي تعين حتى يومنا هذا مواضع معابدها ومواطن قصورها . وحتى هذه الشجرة المهجورة القائمة على اعلى مخروط ترابي لم تغلت من يد التدمير لبني الانسان الا بفضل العقيدة الدينية التي خلعتها الالهة على هذه الدوحة » .

ويكتشف رحالنا في ديار بابل خرائب لعلها خرائب كيش وسيار والتي يسميها باسم (سيدى ابراهيم) و (ابو حبة) . ويكتب ان « الموضوع الاخير محوط بسور مشيد بالاجر ويعلو جانبيه برجان يتبينهما الرائي بسهولة حتى الان بفضل بقاء الانقاض الرائعة منهما : وهناك مواضع لها جدار ارتفاعه اربعة امتار » . (٧)

وهذا الاتصال بالآثار العتيقة هفا بفؤاد قنصلنا الى ان يكون آثاريا وغمره الفرح خلال رحلته بان استطاع اكتشاف موضع يرجع تاريخه الى العهد الاغريقي كما يبدو ، وهو يضم خمسة قبور واثنا ومنقولات كاملة . أو يجد في احد هذه القبور تمثالا صغيراً لالاهة عارية فيفضى بخبر هذه اللقطة الى رئيسه . ويضيف بلباقة وكياسة وتغزل : « ان عدم وجود الحلي

(٧) كيش (وتسمى اطلالها اليوم بالاحيمر) ، مدينة سومرية حكمت فيها السلالات الاربع الاولى السومرية ، وتقع الى الشمال الشرقي من مدينة بابل . نقب فيها العالم الفرنسي (جينوباك) عام ١٩١٢ ، واستأنفت التنقيب فيها بعثة مشتركة امريكية - انكليزية خلال السنوات ١٩٢٣-١٩٢٣ . (س١٠)

بالمرة لدى فينوس هذه العارية كل العارية ، ذات القسمة الرائعة وربة العينين والبشرة العقيقية وصاحبه اقراط الاذن او القلادة الذهبية التي تزين عبقها — بكل ما تحمل من فتن وجواهر تجعلني استتج ان هذا القبر هو قبر شابة ، قد قضت نجها ولارب قبل ان تقدم الى هذه الالاهة هذه الزهرة التي لاتضيع الا مرة واحدة فقط » !

وهو يجمع بين الافادة والاستمتاع بالجمال فيعود من نزهته بعصافير يهدبها الى حديقة الحيوانات وبحمار وحشي يرسله الى باريس . ولكن الحمار المسكين يموت لدى وصوله الى حلب متأثراً بمتاعب السفر !

وإذا كانت النواحي المحيطة ببغداد تعطى انطباعا حوالى عام ١٨٦٠ بالخصوبة فان الحالة لم تكن كذلك في بقية انحاء القطر لأن الجنوب لم يكن سوى مستنقع واسع يصلح لأن يكون مأوى وملجأ للخارجين على القانون وللقبائل المتمردة التي كانت قلما تمارس فيه زراعة الرز .

اما عن سهول الشمال — وهي بطبيعة الحال تكون خصبة اذا اسقيت وأرويت فانها كانت مهجورة لا نصيب لها من الحرث ذلك لأن الفلاحين — وقد طحتهم الضرائب طحنا ، وتوالت عليهم الغزوات من قبل البدو ، لم يكونوا ليزرعوا إلا ما كانوا في حاجة اليه لسد ارماقهم .

ومع ذلك فان القطر بدأ يعتريه التحول في نهاية القرن . فان السلطان عبد الحميد قد كون لنفسه في واقع الامر وعن طريق وسائل مشروعة او غير مشروعة املاكا عظيمة خاصة به فرض عليها تنفيذ اعمال الري لاستصلاحها . وكانت نفقات هذه الاعمال تدفع غالباً من قبل الفلاحين المجاورين . وعلى هذا المنوال كان اكبر قسم من دخول الاقليم يذهب لتضخيم خزينته الخاصة . وكانت نسبة سكان المدن تبدو على اقل ما تكون عليه نسبة سكان المدن .

ولم اقع على اي أثر لوصف أية شية من شيات بغداد في هذه الحقبة .
وبوسعنا حتى في هذه السنين المتأخرة أن نرسم لانفسنا فكرة عما كانت
عليه المدينة منذ مائة عام : فهي مدينة محصورة بين اسوار متهدمة او متداعية
تقع على الجانب الايسر من نهر دجلة وتتخللها أزقة ضيقة لا يستطيع عابر
سبيل ان يجتازها الا راكباً حصانا أو ممتطيا حماراً . ويحدثنا التاريخ ان
الشارع التجاري الذي يخترق المدينة القديمة كان قد شق بقتال المدافع عام
١٩١٥ من قبل الجنرال التركي الذي كان قائداً للجيش المرسل لمقاتلة الانكليز
والذي لم يجد الا هذه الطريقة لامرار مدفعيته ومركباته ! *

فكم كان عدد سكان هذه المدينة ؟

إن عدد سكان بغداد يومذاك لم يكن ليزيد على كل حال عن (١٠٠٠٠٠٠) نسمة .
لقد وجدت في كتاب عنوانه « رحلة من الاستانة الى البصرة في عام
١٧٨١ » لشخص يدعى (سيستيني) الوصف التالي لبغداد : وعساه ما يزال
ينطبق عليها بعد قرن كامل من الزمن وهو :

« ان المدينة تقع على الجانب الشرقي من نهر دجلة وتمتد طولاً الى
ميل ونصف الميل ولعل عدد ابراجها يبلغ الخمسة آلاف برج . ويحيط بها
من جهة الياسة سور مشيد بالاجر المفخور . اما من جهة النهر فهناك
سراى الباشا وجدران المنازل كسياج له . . والمنازل منعزلة عن بعضها ولها
ابواب مربعة منخفضة الى درجة انحناء الانسان حين الدخول اليها . اما
ابواب دور الاغنياء فواسعة . ويؤدى الباب الصغير الى ابواب اكبر والى فناء
مربع فيه حديقة صغيرة تتحلق حولها الشقق المطلية بالجص او العارية :

* يقصد الجنرال خليل باشا الذي استخدم الاسرى من القوات الانكليزية في شق
الشارع الذي أطلق عليه اسمه « خليل باشا جاده سي » وبعد قيام الحكم الاهلي في
العراق أبدل ب « شارع الرشيد » (س١٠)

وفوقها سطوح معدة لنوم اصحابها من شهر تموز الى شهر تشرين الاول واما السرايب التي تتخذ ماوى في أيام الصيف اللاهبة فهي مقببة .

وبناية السرداب برمتها مشادة بالاجر السبيء الشي ولايطلق ظاهرها بطلاء . وفي اوساط هذه القاعات التحتانية فتحات لمرور الهواء تنتهي الى سطح الدار (بادكير) وهي بمثابة مراوح للتهوية لجلب النسمات المنعشة « ...

» والمدينة ليست جميلة ، وشوارعها ضيقة مغبرة موحلة . اما السوق فتجد فيه بعض معالم النظافة . وهو واسع ويؤلف بنفسه مدينة قائمة بذاتها ، وتباع فيه البضائع على اختلاف أنواعها . أما الجوامع والخانات والحمامات فليست قليلة العدد في بغداد .

والحمامات بصورة خاصة تطل ارضها بطلاء من الزفت بدلاً من رصفها وقد نزلنا منزل سوء في خاننا فان الذباب والبعوض كانا متوفرين فيه . وليس من العجيب ان نجد عقرباً ضخمة منقوشة على جميع اوسمة (قوماجين Comagène) الواقعة شمال شرقى سوريا .

» ومنذ طاعون عام ١٧٧٣ لم يبق في قيد الحياة اكثر من (٢٥٠٠٠) من السكان في بغداد فقد قتل هذا الوباء ثلثي السكان وما تزال بعض الاحياء مقفرة حتى يومنا هذا ، وقد مات اسقف ديار بابل ضمن من مات في هذا الطاعون ودفن في الكنيسة دون ان توضع على راسه قبرية اما خلفه فلم يغادر باريس بعد . وقد نصحته بالتريث والبقاء في مكانه .

» ويرتدي الاغنياء من سكان بغداد الاقمشة البديعة الواردة من الهند ولكن عامة الشعب يعلوها الرث من الثياب القذرة والأسمال البالية . ولكل من افرادها حزام جلدي يمسك بهذه الحزمة اللاصقة على اطرافه . وتعلق النساء حلقات في عرائنهن (خزامات) وترتسم على سواعدهن الوشوم

المختلفة . ويعشن في عزلة تامة عن الرجال . وحتى في منازلهم لا يسمحون
للأوروبيين برؤيتهم : فإن المواجهة هي امتياز من امتيازات اللحية فقط . وان
اخلاق هاته النسوة ليست بمشابهة لاخلاق البابليات اللواتي حدثنا عنهن
(كانت كور) احاديث لطيفة .

« وعلى الضفة الاخرى من نهر دجلة ضاحية كبيرة تعج بالبساتين
وبغياض اشجار النخيل : ولكن كل شيء هنا قاحل ولا يكاد يبهج النظر »
وعلى العكس من ذلك فاني أعلم ان الموصل في عام ١٨٧٩ كانت تعد
(٤٠٠٠٠) من السكان وتؤلف مركزاً ثقافياً بالغ الحيوية . وكان قنصلنا في
تلك الفترة يضعها من هذه الجهة فوق دمشق وبغداد وحلب ويقول : « بوسع
القاهرة فقط ان تزعم مضاهاتها » . وإن المدينة التي كانت في القرن الثالث
عشر تزدهر بعدد جوامعها البالغ (٤٠٠٠) جامع وبحماماتها التي تعد ٢٠٠
حمام وبخاناتها التي يصل تعدادها الى (١٢٠) خان وبرقم مصانع حياكتها
الذي يبلغ ٧٥٠٠٠ مصنع — ان هذه المدينة لم يعد لها من هذه الاشياء
سوى ١٣٠ جامع و ٣٥ حمام و ٢٠ خان و ٣٥٠٠ مصنع حياكة فقط *
ومع ذلك فهي آخذة بالنهوض من كبوتها شيئاً فشيئاً ابتداء من عام ١٨٨٠ .
ففي عام ١٨٨٣ شرع بطبع جريدة اسبوعية فيها تصدر باللغتين التركية
والعربية لم تكن لتحتوى تقريباً الا على الاخبار المحلية والاعلانات الرسمية .
ولم تكن المدن لتتمتع بالهدوء والطمأنينة اكثر مما تتمتع بهما الطرق
والانهار . فقد كانت السرقات والقتول دائمة الحدوث فيها . وكان الجناة
بصورة عامة لا تطالهم يد العدالة . وفي اغلب الاحيان كان معتمدونا يشكون
من ذلك شكوى مريرة فقد كتب مثلاً قنصلنا في بغداد عام ١٨٩٠ مسيو

* الاحصاءات التي ذكرها مبالغ فيها خاصة عدد الجوامع (س ١٠)

(بونون) يقول :

« إن طاعوناً من السرقات والاعتيالات قد تفشى هنا منذ شهرين . وفي كل ليلة تقريباً يسطو اللصوص على بعض المنازل ويجردونها من متاعها . وفي كل ليلة تقريباً تغتال قطعان من الشقاة بعض الافراد . وقبل فترة قصيرة اجتاحت شردمة مؤلفة من نحو عشرة لصوص بيت الطبيب الهنغاري في رابعة النهار في حين أن المنزل يقع في أكبر حي من أحياء المدينة التي تعج بالسكان . وقد ازدرى اللصوص بالأمثلة الرخيصة الثمن واستحوذوا على مجموعة من النقود الساسانية والكوفية التي تقدر قيمتها بعشرين ألفاً من الفرنكات وبالرغم من أن السراق معروفون وأن بعضهم قد أعتقلوا وقد اعترفوا وقد أعادوا بعض النقود فان السلطة القضائية تقف موقفاً يطعن القضاء والعدالة في صميمها الى درجة لا تكاد تصدق (٨) . وأعقب تلك الحوادث سنة واحدة تفاقم الوضع خلالها واستطار شره فكتب قنصلنا يقول :

« إن التسبب في بغداد قد بلغ الأوج . فالسرقات متصلة وأعتقد أن مائتي حادثة قتل على الأقل قد وقعت منذ ثمانية أشهر في المدينة . ولم يصدر أي حكم جدي في أي من هذه الجرائم . فان الحكم يبعون أحكام تخلص المجرمين للمجرمين . ويذكر الناس هنا أسماء قتلة ارتكبوا جرائم القتل في رابعة النهار ولكن أطلق سراحهم بحجة عدم وجود شهود . ولا أستطيع أن أرسم لمعالكم صورة عما وصلت اليه الحالة في هذا الاقليم منذ أن اصبح يدار من قبل الوالي الحالي . ان هذا الشخص المرتشى يبيع كل شيء لقاء المال الى درجة لا يمكن تصورها . وان الناس هنا ابتداء من الوالي وانتهاء بأخر

(٨) الرسالة المؤرخة في ٦ تشرين الثاني ١٨٩٠ .

فرد من أفراد الجندمة يسرقون وينهبون وان القوضى خير من النظام
الذي نعيش في ظله . (٩)

والحقيقة أن الوالي كان له من المشاغل التي تهمه أكثر مما يهمله السهر
بنفسه على حفظ النظام في مركز اقليمه . فقد كتب القنصل يقول : « ان
الوالي متغيب منذ أكثر من شهر . فقد ذهب يتحنث ويقنت ويتهدج في
كربلاء وفي النجف . وقد جمع علماء الدين السنة والشيعه ليناظرهم على
مأ الأَشهاد . وانني لا أعتقد أنه سينجح في إحلال المصالحة بينهما . فقد
فشل في هذه المحاولة من هم أقوى منه في القرون الوسطى . وان هذه
المناقشات اللاهوتية على أي درجة من البراعة كانت يحتمل أن لا تكون
عقبها إلا جعل هؤلاء الأخوة المتعادين بعضهم أبغض الى بعض عما كانوا
عليه قبل هذه المحاولة . وأياً كانت الحالة فقي حين ينغمس الوالي في
المسائل اللاهوتية في كربلاء لا يشغل أحد نفسه في العمل لصالح بغداد .
فكل إنسان في بغداد في ألم وعذاب والعدالة قد ضعف ناصرها ونذر من
يمارسها وتكاد تكون مفقودة أكثر من أي وقت مضى . (١٠)

وكانت الإقامة في بغداد كذلك تزداد صعوبة ومشقة من جراء المناخ
وانتشار الأوبئة .

وبوسعي اليوم أن أؤدى شهادتي في الموضوع . فان مناخ العراق قاس
ولكنه صحي . فخلال ثلاثة أشهر إعتباراً من حزيران حتى الخامس عشر
من أيلول يتأرجح الترمومتر بين الأربعين والخمسين درجة مئوية . ومن
النادر أن تهبط الحرارة في الليل الى ما تحت الدرجة الخامسة والثلاثين .

(٩) الرسالة الموموخة في ٢٣ آذار ١٨٩١

(١٠) الرسالة الموموخة في ٢٠ مايس ١٨٥٣

وإذا أضفنا الى هذه الحرارة — وهي كحرارة الأفران — العواصف الرملية ، وكان حدوثها في الماضي أكثر من حدوثها في أيامنا هذه من جراء قلة مساحة الأراضي التي يشملها الري أمكننا أن ندرك لماذا كان وكلاؤنا الذين لم يكن تحت تصرفهم ما تحت تصرفنا من ثلاجات وأجهزة مكيفات الهواء التي بوسعنا أن نستعملها في هذه الآونة يشكون في معظم الأحوال من المناخ . لا شك أن المنازل القديمة التي كانوا يقطنونها كانت تقيم خيراً مما تقينا بيوتنا العصرية من شدة الحرارة : إذ كان للقدماء الجدران السمكية والشرفات المستورة المتجهة الى الشمال ، والأروقة المظلة المزدانة بفسقيات المياه والحجر المعقودة تحت الأرض لأجل القبولة . ومع ذلك فإن الإقامة الطويلة في أمثال هذا المناخ منهكة كل الانهك للانسان الأوروبي .

ويجب ألا ننسى كذلك ان قناصلنا لم يكونوا يستطيعون المكوث طوال النهار محبوسين في محل اقامتهم الذي كان يتحتم عليهم أن يخرجوا منه وأن يستقبلوا الناس فيه لا سيما اذا وقع الاحتفال بالملك لويس فيليب في شهر مايس واذا صادف عيد نابليون في الخامس عشر من شهر آب . ففي هذا اليوم كان يتحتم على معتمدنا أن يرتدوا ملابسهم الرسمية ويمضوا الى الكنيسة حيث كانت تقام صلاة دينية ثم يتوجب عليهم بعد ذلك أن يستقبلوا الناس في بيوتهم في حمارة الظهيرة وهي زيارة أعيان البلد .

وسأعود في فصل آخر الى موضوع هذا الاحتفال السنوي ولكنني أود منذ الآن أن أشير الى الصعوبات المؤلمة التي كانت ترافق هذه الاحتفالات في الصيف اللاهب : ففي عام ١٨٥٣ مثلاً رأى نائب قنصلنا مسيو تافرنيه ضرورة أن ينقل الى علم الوزارة بسالة « رئيس الأساقفة السوري المحترم الذي — وهو قد أناف على السبعين عاماً — قام من تلقاء نفسه باجراء

الطقوس الدينية بالثياب الكهنوتية في وقت بلغت درجة حرارته السادسة والأربعين في الظل » . ويضيف الى ذلك قائلاً : « وكان غرضي إتمام هذا النهار بالاجتماع في مأدبة تجمع كل أعيان القطر . ولما كانت الحرارة الساحقة عائناً حقيقياً في سبيل تحقيق هذه الرغبة تراءى لي أنني لن أستطيع القيام بهذا الاحتفال بصورة أفضل من انفاق مبالغ الولىمة على الكنائس وعلى الطبقات الفقيرة . فأنفقتها على هذه الجهات . (١١) »

وقد عرف قناصل الجمهورية الثالثة نفس الهموم عندما يقع عيدنا الوطني في الرابع عشر من تموز .

فقد أبرق أحدهم الى سفيرنا يشكو من الوقاحة التي قابله بها والي بغداد . فقد دعي هذا الشخص الى الحضور بملابسه الرسمية في وقت الظهيرة الى دار القنصلية احتفالاً بهذه المناسبة . فكان جواب الوالي أنه قد تصب من جسمه كفاية من العرق وهو في قميصه الرقيق . وأنه لا يأنس في نفسه الشجاعة الكافية لارتداء ملابسه الرسمية وأنه سيوفد أحد مرافقيه ليمثله وينوب منابه في حفلة الاستقبال هذه . فذهل قنصلنا وصدتمه هذه الاجابة واقترح على السفارة التي وافقت على اقتراحه — هذا الحل : وهو أن يقبل عرض الوالي . ولما كان عيد جلوس السلطان سيحل بعد أيام معدودات فانه سيعلن بدوره اعتلال صحته فيرسل ترجمانه . ولكن أحد خلفاء هذا القنصل ستكون له حكمة جعل ساعة حفلات استقباله تقع في نهاية الأمسية وهو مثال سيحتذى فيما بعد .

وبديهي أن هذه الحوادث ليست سوى بعض خفاف مزعجات المهنة التي لم تؤد أبداً الى موت أحد . والأخطر من ذلك كانت الحالة الصحية

في تلك الحقبة . ونحن اليوم بفضل تقدم طرق الوقاية الصحية وانتشار العلم الطبي والاستعمال الجماعي لل (دي . دي . تي) ولعقاقير أخرى ضد المكروبات استطعنا أن نشهد في الواقع إنطماش آثار الطواعين الوافدة الى العراق . ولم تكن الحالة على هذه الشاكلة منذ مائة عام فحى المستنقعات وهي الملاريا كانت تسود جنوب العراق في حالتها الطاعونية وذلك لوجود المستنقعات والفيضانات بكثرة في تلك الآونة . وكان وكلاؤنا يشيرون اليها في أحيان كثيرة . فقد كتب قنصلنا العام في بغداد مثلاً في عام ١٨٥٣ يقول : « ان الحمى السنوية في البصرة قد أحدثت وفيات كثيرة . وان الأبخرة العفنة التي تتصاعد من المستنقعات الشاسعة التي نجمت عقب فيضانات النهر والتي لم تستطع السدود المنهارة أن تعوق زحفها قد قضت على طائفة كبيرة من السكان . وكل ذلك لأن الولاة الأتراك لم يلتفتوا الى ترميم السدود التي تخربت منذ بضع سنوات ، نظراً لاستهتارهم وانهماكهم في سرقاتهم وملذاتهم . ولعلنا نستطيع أن نرى بعين التصور والتخيل ميناء البصرة ومدينة البصرة وقد تناولتهما يد الخراب بعد فترة غير طويلة . هذا الميناء وهذه المدينة وكلها منافع وخيرات لا أستبعد أن نراها في قابل الأيام القرية وقد أصبحت فقراً يباباً . وكانا خير منتفع من تجارة الهند » .

وفي العام التالي جاء دور بغداد نفسها لتتجرع طعم الكارثة . فكتب قنصلنا العام يقول : « في هذه الآونة ذاتها اجتاحت بغداد حمى وبيلة سببتها فيضانات الفرات . فصالت وجالت وعاثت في هذه المدينة وأصبحت أنا نفسي بها : وهذا البلاء ناجم من استهتار الولاة الذي لا علاج له ولاهمالهم المزمين :

فماذا كانت اجراءاتهم ؟

صيانة للمظاهر الشكلية وافقوا على اجراء العمليات العقيمة لصد هذا الوباء وذلك ليضربوا عصفورين بحجر ويغنموا مغنمين . المغنم الأول هو فرض ضرائب جديدة على السكان . والمغنم الثاني هو مطالبة الباب العالي بنفقات هائلة يزعمون أنها صرفت على هذه العمليات زوراً وبهتاناً .

والأفزع من هذه الأوبئة هو وباء الكوليرا (الهیضة) . ففي عام ١٨٤٦ اكتسح بغداد وأهلك فريقاً من سكانها . وقد وصف هذه الكارثة البارون (فيمار) قتلنا العام في بغداد الذي أصيب هو نفسه بهذا المرض فكتب يقول : « لم أستطع نيل شرف توجيه تقرير الى معاليكم عن طريق البريد الأخير . هذا التقرير الذي يتوجب علي أن أرسله الى مقامكم مع كل بريد راحل . فقد وقعت طريح الكوليرا قبل يومين من رحيل البريد . إذ هاجمتني هذه الكوليرا مهاجمة عنيفة لا أكاد حتى الآن أصحو من هول كابوسها بعد أن عرضت حياتي الى الخطر مدى بضعة أيام . واني مدير . بانقاذ حياتي الى مهارة وعلاجات الدكتور (فورستي) طيب كلية (بولون) الذي كان ماراً ببغداد في هذه الأيام . . وقد بدأت الكوليرا بالتنفسي والانتشار بين الأهالي الجهلاء بصورة مرعبة اعتباراً من أول يوم من أيام رمضان . فارتاعوا منها كل الارتياح نظراً لأنهم محرومون ممن يرشدهم ارشادات صحية .

وما ان شرع المرض بالظهور حتى غادر قنصل انكلترا بغداد والتجأ الى طاق كسرى الذي يبعد عنها مسيرة ست ساعات وقد اصطحب معه طيب قنصليته وهو الطيب النظامي الوحيد الذي استطاع أن يقدم للمرضى بعض المساعدات . وقد فرض على نفسه وعلى مرؤوسيه ومواطنيه الحجر الصحي الأربعيني ورفض رفضاً قاطعاً الاتصال بالمدينة : وما يزال هذا

الاعتزال نافذ المفعول حتى الآن . ولم يساهم هذا الابتعاد في اطلاق البلدة .
وما ان علم السكان برحيل الانكليز هذا حتى هربت طائفة اليهود
بأجمعها تقريباً وتبعها جماعة من النصارى . وحذا حذوها عدد كبير من
الأعراب فقروا جميعاً من هذا الطاعون متجهين الى مختلف الاتجاهات
وذلك حين اقتنعوا بطابع هذا المرض المعدي . ومن جهة أخرى كان هناك
عدد كبير من الناس لا تعرف مذاهبهم رأوا هجرة سكان بغداد هذه
وأملوا أن الجائحة ستتناول بالتدمير أكبر عدد ممكن من الأفراد الباقين في
المدينة فجاسوا خلال البلدة وحرضوا السكان على الانضمام اليهم للقيام
بعمليات النهب والسلب هذه تمهيداً لاشعال نيران ثورة . في هذه الظروف
رأيت من المناقض كل المناقضة لواجباتي أن أحذو القنصل البريطاني في أن
أغير شيئاً من مجرى الأمور اليومي في القنصلية العامة .

فبقى أبناء جلدتي من الفرنسيين وكذلك الأجانب المشمولين بالحماية
الفرنسية معي داخل المدينة . . وبعد أقل من خمسة عشر يوماً تبين أن
الكوليرا قد حصدت أرواح ٤٣١٨ نسمة من السكان من مختلف الأعمار
من السكان الذين قد تناقص عددهم حتى وصل الى أقل من ٣٥٠٠٠ نسمة
وذلك من جراء الهجرات نتيجة للفرع العام . أما الأوروبيون فلم يخسروا
إلا ضحية واحدة ألا وهي الأب المحترم (الفونس) معاون مدير الارسالية
التبشيرية اللاتينية . .

ومنذ بضعة أيام وقعت اصابات متفرقة بهذا المرض هنا وهناك وأخذ
الوباء هذا الشكل المتشتت . كما كانت حالته في البداية ولكنه أخذ يتضاءل
شيئاً فشيئاً ويتراجع منحسراً عن المدينة . .

أما الوزير فقد أتحنى في جوابه باللائمة على موقف الممثل البريطاني

كما هو المتوقع واستحسن قرار قنصلنا ببقائه في مقر وظيفته وهناك (بالشفاء الميمون) من مرضه . (١٢)

وفي العام التالي ظهرت طلائع الوباء من جديد . ظهر الطاعون بادية الأمر في البصرة ، حيث ذهب ضحيته نائب قنصلنا مسيو (م . ريمون) ثم مضى صعداً في مجرى دجلة فوصل الى بغداد حيث أصيب به مجدداً قنصلنا فيها . فكتب يقول : « لقد انتشر الوباء على طول دجلة (في الضفة الغربية) وتفشى في المستنقعات فبلغ الحلة وهي لا تبعد كثيراً عن بغداد حيث بلغ عدد الضحايا منذ خمسة عشر يوماً معدل ثماني أو عشر أنفس لكل يوم . وقد هلك من اثني عشر الى خمسة عشر شخصاً في اليوم في احدى الضواحي التي يبلغ تعداد سكانها ٤٠٠٠ نسمة وهي على مقربة من البصرة .

وفي بغداد بالذات وقعت بعض الوفيات : وان السكان هنا وهم يتذكرون ان هذا الوباء انتشر في السنة المنصرمة في اعياد شهر رمضان — وهي قرية — قد اتابهم قلق عظيم . وبالرغم من تحذيرات الدكتور (دروز) الطبيب الفرنسي القائم بخدمة الحكومة العثمانية فان الحكومة المحلية لم تتخذ اى اجراء لمكافحة المرض . وان الاعتماد الذي طلبه منذ شهر لتهيئة بعض الادوية لم يوفر له حتى الان » . وعقب ذلك بايام معدودات اضاف مواطننا يقول : « ان الكوليرا الخبيثة دائمة النشاط في قتل ضحاياها حتى في بغداد ذاتها . وقد اكدت منذ خمسة عشر يوماً بمعدل وسط . فهي تقتل خمس عشرة نسمة كل يوم . وعدد المصابين يكون مضاعفا على وجه التقريب . وقد اصبحت انا نفسي من جديد بهذا المرض ولكن بخطورة اقل من خطورة

(١٢) الرسالة المؤرخة في ١٤ تشرين الاول ١٨٤٦ .

السنة الماضية . وسانتقل بكل ما وسعني من سرعة وامكانية الى بستان
يقع عند باب المدينة على مسافة قريبة من الوالى الذي اتخذ محلاً لاقامة بيته
الصيفي « (١٣) .

ولكن الحميات والهضة لم تكن الامراض الوحيدة التي يمكن ان يقع
الانسان فريسة لها في هذه المناطق . فهناك وباء آخر يعرفه جيداً اولئك
الذين قدر لهم ان يقيموا في الشرق الاوسط . وهو ولا ريب اقل خطورة .
ولكنه مع ذلك كرهه مقيت للغاية . ذلك لانه يحمل خطر تشويهك : واعني
به ما يسمونه (حبة حلب او حبة بغداد) « الاخت » . . وتسمى كذلك في
القواميس الطبية : — حبة الشرق . حبة بسكرة . حبة النيل . حبة قفصة .
حبة السنة . حبة الزيبان . حبة البلاد الحارة . قرحة الصحراء ، داء
اللايشمانيات الجلدى . مسمار بسكرة » .

وقد عرف نائب قنصلنا في بغداد هذه البلية عام ١٨٦٣ ، وها هو
يقص علينا قصتها بصورة مطولة دون ان يعفينا من ابط التفاصيل بالغة ما
بلغت هذه التفصيلات من القباحة . والاحسن ان نصغى اليه يقول :
« منذ عودتي من طوافي بديار بابل رزئت بانثاق حبة بغداد . فقد
كان من سوء حظي ان اصاب بخمس وثلاثين حبة في كل انحاء جسمي ،
ويقول اطباء هذه البلدة ، يا سيادة الوزير ، انهم لم يشهدوا طوال اعمارهم
طفحاً بهذه الكثرة . وقد انتشر بصورة خاصة وبكثرة على المفاصل الكبيرة .
لاسيما على الساعد الايسر بحيث يخشى طبيعي ان يظل متشنجاً . وهذه
القروح التي ينساب من اوساطها وبدون انقطاع قيح اصفر تنن حاد تثير
لدي حكات حادة متصلة اعاني من جرائها اوجاعاً هائلة ، والانكى من

ذلك ، يا سيادة الوزير ، اني منذ ملازمتي للفراش قبل خمسين يوما لم اغمض جفني خلالها اكثر من ستين ساعة . وهذه الليالي المؤرقة تكاد تقتلني . وها اني قد انهارت قواى . ولا يوجد اي دواء لهذا المرض . وان جروحي التي سعة اصغرها كسعة نصف راحة اليد تتيسر اعتياديا بعد ثلاثة او اربعة اشهر فتصبح بشكل قشرة فضيعة تدوم هي نفسها ثلاثة اشهر قبل ان تسقط . وقد اكد لي مختلف الاطباء الذين استشرتهم بان مرضي يشارف على نهايته ، وان هذه الخراجات ستجف بعد فترة قصيرة من تلقاء نفسها . وهو كل ما اشتبهه ، يا سيادة الوزير بغية التخلص بسرعة من حالتى التعيسة التي اتخطب في احوالها ذلك لان آلامى هائلة » .

ويبل مريضنا من مرضه . ولكن بعد بضعة اشهر تكلفه رغبته في حضور احتفالات عيد نابليون متاعب جديدة تقوده الى طلب اجازة ، فيكتب قائلا : « لقد اصبت في الايام الاولى من شهر آب بحمى متقطعة هيأتني لان اكون فريسة لهجماتاتها الاوجاع العظيمة التي عانيتها في بداية السنة . وأيا كانت الحالة ، يا سيادة الوزير فاني في الخامس عشر من آب اردت ان اواجهها بعزم وثبات . فذهبت الى الكنيسة الخورانية حيث حضرت كما هو المعتاد (مرتديا ملابسى الرسمية) الطقوس الدينية وتسيحة الشكر لله التي جرى ترتيلها بمناسبة عيد جلالة الامبراطور . وفي تلك الاصبوحة استقبلت زيارة الحاكم العام والهيئة القنصلية والهيئة الكهنوتية وكل السلطات المدنية والعسكرية في المدينة وذلك بالتالى . وبعد انتهاء حفلة الاستقبال هذه التي دامت اربع ساعات حسوما في درجة حرارة مئوية تبلغ الثانية والخمسين في الظل وفي الشمال — كذا — اضطرت الى ملازمة الفراش تحت وطأة حمى لاهبة زادها بلية على بلية الالتهاب الذي اصيبت به كبدى » .

ويبدو ان الوزير قد اوجعته هذه الحالة التي اصبح عليها هذا المسكين .
لان قنصلنا لم يعد يظهر في بغداد . فنؤمل له ان يكون قد استطاع الحصول
على صحة جيدة تحت طقوس ارحم به واشفق عليه . ونسجل هنا بمداد
الاعجاب شجاعة هؤلاء الرجال الذين خاطرنا بارواحهم بل ضحوا في بعض
الاحيان خدمة لاطنانهم في ظروف محفوفة بالمتاعب والمخاطر .

القسم الرابع

السكان

لقد ارتفع عدد السكان في العراق في القرن التاسع عشر الى نحو مليونين من الأنفس . وقد حاول معتمدونا في بعض الأحيان أن يحصوا السكان عن طريق احصاء عدد افراد كل قبيلة . ولكنهم لم يوفقوا إلا الى احصاء عدد الخيم . او بالاحرى لم يتوصلوا إلا الى احصاء عدد الرجال القادرين على حمل السلاح .

وهذا العدد قد قدر تقديراً اعتبارياً بعيداً كل البعد عن الحقيقة والواقع . وكان الاعراب يقاومون كل احصاء ويتمردون عليه . تارة خوفاً من جامعي الضرائب . وطورا خشية من المكلفين بتجنيدهم . وعلاوة على ذلك فان العادات الاسلامية تناهض وتحرم كل تدخل في شؤون الحريم . واليكم بهذا الخصوص ما كتبه قنصلنا في الموصل « لقد سولت لاحد ولاة الموصل نفسه ان يضرب بهذه التقاليد عرض الحائط فيفرض على جميع السكان عملية احصاء النفوس وذلك في عام ١٨٩٢ . ولكنه ذاق طعم هذه التجربة الحمقاء وكان طعماً مشعباً بالمرارة . يقول القنصل : « حين اراد هذا الوالي تسجيل اسم كل اثنى من السكان في سجل احصاء النفوس قامت عليه القيامة . . فان المسلمين في مدينة الموصل الذين يغارون على النساء غيرة منقطعة النظير قد تصل الى حد الشراسة قاوموا هذه العملية . فاقفلت الحوانيت وتوجهت منهم جموع كبيرة الى الشكنات حيث يقيم الوالى . فأسرع هذا الاخرق الى تهدئتهم وذلك بتنازله نهائياً عن الاجراء موضوع

الهباج .. ولم تدع السلطات المحلية هذا الظرف يمضي دون استغلاله والاستفادة منه بجعل الباب العالي في الاستانة ينزع ثقته من واليه في الموصل على امل التخلص من موظف متمزت صارم بغيض جعلهم يرتجفون ويخشون شره . وكان غرضهم من الابراق الى الباب العالي مخبرين بتفاصيل هذا الحادث هو ان يوسوسوا لهذا الباب الحساس فيحملونه على الاعتقاد بان ثورة عارمة قد طار شرارها في الموصل . ففعلت هذه الاكذوبة مفعولها لدى الباب العالي بحيث ان حكومته ابرقت الى هذا الوالى بان السلطان لا يريد الدخول الى حرمة الامبراطوري قبل ان يطمئن كل الاطمئنان على حقيقة الوضع .

وكان هؤلاء السكان — كما هم عليه اليوم — خليطاً عجيباً من الاجناس .
فبينهم اكثرية من العرب سواء اكانت من المتحضرين او من البداءة . كما ان
بينهم اقلية ذات شأن من الاكراد .

اما العرب المتحضرين فان القناصل قد تحدثوا عنهم قليلا . فهم يصفونهم
بكونهم تعساء قد طحتهم الضرائب . وتداهمهم بدون انقطاع غزوات جيرانهم
سكان الفلوات الذين يعقدون معهم في بعض الاحايين موائيق وعهوداً ليطمئنا
الى حمايتهم من قبلهم . فقد كتب مسيو سيوفي معتمدا في الموصل
يقول — مشيراً على سبيل المثال الى عام ١٨٧٩ يوم عقد حلف بين قبيلة
بدوية وبين جيرانها المتحضرين : « ان قبيلة عنزة التي سكنت في كل الحقب
صحراء سوريا هي في الاغلب الأعم قبيلة بدوية . وحين يريد ابناء هذه
القبيلة القيام بغزوة في بلاد ما بين النهرين فان ابناء عشائر الدليم العراقية
يكونون ادلاءهم ومرشديهم لدى عبورهم لنهر الفرات . وائس ذلك فحسب
بل ان افراد هذه العشائر العراقية يقودون جموع عشائر عنزة الى الانار

العديدة التي ترشد الى مواضع قطعان الماشية المبعثرة في السهول الواسعة لبلاد ما بين النهرين . فيقع عليها ابناء عنزة ويمعنون في سلبها ونهبها .

وقد جرت العادة ان يكافئ هؤلاء السلابون من فتيان عنزة ادلاءهم المخلصين مكافأة حسنة تساوق اخلاصهم وتفانيهم في خدمتهم وذلك باعطائهم حصة عينية مما يسرقون وينهبون . فاذا تعقب آثار العزيرين وطاردهم بعض الاعداء ، أو اذا خافوا من وجود تعقب ومطاردة فانهم احيانا يطيطون على خيولهم للاتحاق بقفارهم . ولكن عندما تكون الغنائم والاسلاب بالغة الاهمية بحيث تعوقهم عن عبور النهر ثانية واجراء عملية الانسحاب بالصورة التي يتطلبها الموقف فانهم يتركون جزءاً من هذه الغنائم والاسلاب بين ايدي تلك العشيرة العراقية المحالفة تحتفظ بها لحليفها السورية . (١)

ولكن قلما كان يقع الوفاق بين البدو والحضر ، كما هي الحالة في هذه الفترة . ففي معظم الاحيان كان الفلاحون الفقراء المساكين يعانون الاهوال من جيرانهم عفاريت الصحراء . لاسيما حين يلجأ هؤلاء الشياطين الى زعمهم المشهور وهو ما يسمونه « شريعة الدم » هذه الشريعة التي عرفها التعريف التالي قنصلنا في الموصل عام ١٨٥٢ ، اذ كتب يقول « يزعم البدو ان حقهم في الاستيلاء على اموال الاخرين حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وانهم في المعارك التي يشنونها على المعتدى عليهم اذا قاومهم هؤلاء المساكين فتجزم عن هذه المقاومة وقوع قتييل او قتلى من بين صفوف المهاجمين فانهم يشهرون حينئذ ما يسمونه بـ (شريعة الدم) كسلاح جديد في وجوه خصومهم المعتدى عليهم والمدافعين عن انفسهم واموالهم . وعلى القافلة التي قاومت : وعلى القرية التي نافحت عن حماها . ان تتحملا نتيجة

(١) الرسالة المؤرخة في ١٠ آذار ١٨٧٩ .

هذه الخطيئة الكبرى ! . . ان على المقاومين ان يتدبروا امرهم منذ هذه اللحظة وان يكونوا على حذر وعلى قدم الاستعداد وذلك لان محاولات للانتقام والثأر محتمل وقوعها في اية لحظة من لحظات الايام المقبلة .

واستعانة بهذا العرف العجيب كان هؤلاء اللصوص من البدو يشلون كل مقاومة من جانب سكان القرى التعساء . هذه القرى الواقعة في السهول التي فضلت ان تخضع لمظالمهم على ان تخوض معهم معارك لا نهاية لها . وانا اذا كنا نعرف النزر اليسير عن حياة هؤلاء الفلاحين البائسين فاننا من الجهة الاخرى نملك وصفاً تصويرياً رائعاً عن اخلاق البدو . والفضل في ذلك يرجع الى نائب قنصلنا في الموصل مسيو سيوفي الذي قام في عام ١٨٨٩ برحلة خلال الصحراء اثر عودته مع زوجته من فرنسا وذلك بعد اجازة قضائها هناك .

وقد اتخذ طريقه عبر دمشق وتدمر وشرع يقص قصة رحلته على وزير الخارجية بكل ما تتضمنه القصة من تفاصيل كثيرة . فقد تناول بالوصف مثلاً تنقلات البدو فقال : « لقد صادفنا في طريقنا فريقاً من احدى العشائر آخذاً سبيله باتجاه الموصل سعياً وراء المراعي . وكان هؤلاء البدو يجرون معهم عدداً كبيراً من المواشي والقطعان التي تتقدمها أو تقفوها رعاتها وكانت النساء في حالة ركوب . فبعضهن قد امتطين غوارب الابل . وبعضهن قد علون ظهور الحمير . أما المطفلات من النساء فكن يحملن أطفالهن على سواعدهن وعلى ظهورهن أو على رقابهن وأكتافهن . وبعضهن مرتديات على الأحمال . وكان عدد كبير منهن يمشين على أقدامهن متابعات للركب وهن يحمان على سواعدهن الجديان أو الحملان المولودة حديثاً . هذه المواليد التي لم تكن في حالة من القوة تسمح لها بمتابعة أمهاتها .

أما الرجال فكانوا معتلين صهوات جيادهم ، وكان الجميع في فرح ومرح بالغين . وكان هذا الركب المتقل يتألف من ٨٠ شخصاً .
.. كان مسافرونا في أغلب الأحيان ينزلون ضيوفاً على البدو . وهذه الحالة قد اتحفنا بقصص شائقة رائعة ، سواء ما يخص السكنى أو ما يتعلق بالغذاء : واليكم مثلاً ما كتبه مسيو سيوفي واصفاً نزول القوم وتخييمهم . قال : « كان الأعراب منهمكين في نصب خيمنا . فرأينا تمضية للوقت وتخلصاً من مرارة الانتظار أن ندخل الى خيمة الشيخ فدخلناها وبادرنا مستقبلاً مرحباً أحسن استقبال وأجمل ترحيب .

واشتعلت النار في وسط الخيمة لأجل تهيئة القهوة . هذه الخيمة التي ملأها الدخان الى درجة أنها أكرهتنا اكرهاً على أن نغادرها أنا وزوجتي . أما الأعراب فلم يبرحوا جالسين في أمكنتهم بالنظر لتعودهم على هذه الحياة الداخنة . وبعد مضي ربع ساعة من الزمن نادى المنادي داعياً إيانا لاحتساء القهوة التي كانت آتت قد أنضجت .. كانت هناك أباريق قهوة (دلال) مصفوفة حول النار الموجودة في حفرة مستديرة تتخفص عن سطح أرض الخيمة . كانت المغلاة الكبرى التي تتسع للترين مخصصة للماء الساخن . أما المغلاة الثانية التي تتسع لنحو لتر واحد فكانت تستعمل لاعداد القهوة . وأما المغلاة الثالثة التي كانت أصغر حجماً فانها تتلقى الجزء الصافي من السائل الموجود في المغلاة الثانية وهو الذي يستعمل للشرب .

وكانت الخيمة منقسمة الى شقتين : الشقة الأولى حيث تجري فيها أعمال الضيافة وهي مخصصة للرجال . أما الشقة الثانية فمحتجزة للنساء . ولكل من هؤلاء الأناث عملها الخاص . فبعض النساء حاملات المعاول كن يتزعن الأشواك التي يتخذن منها وقوداً . وبعضهن يطحن الحنطة أو الشعير

بمطاحن تدار بالأذرع (الرحي) . وهناك نسوة يخبزن الخبز . وهناك أخريات يقمن بالطبخ والنفخ . وهناك غيرهن يعدن من بعيد وهن يحملن على ظهورهن قرباً مملوءة بالماء أو انهن يحلبن المواشي ويضعن ألبانها في أوعية كبيرة مصنوعة من الخشب أو من النحاس بغية استخراج الزبدة منها أصبوحة الغد .

وكانت هذه الأعمال الشاقة مفروضة على النساء في حين أن الرجال كانوا متخذين مجالسهم وهم يتناولون قهوتهم ويدخنون في غلايينهم « .

وبالرغم من مشاغلهن المرهقة فان هؤلاء النسوة أنفسهن قد شعرن بوجود امرأة أوروبية قربهن فانضممن الى بعضهن في جبهة واحدة ليوجهن اليها كل أنواع الأسئلة التي معظمها تطفلي لا يراعي التكم الواجب ولا يرضى حرمة للشؤون النسائية التي تخرج المرأة . هذا اذا آمننا بما يقوله مسيو سيوفي في حديثه التالي : (بعد أن تناولت القهوة خرجت لمراقبة عملية اقامة مخيم لنا فرأيت زوجتي مسترسلة في حديث مع بضعة نسوة بدويات كن قريبات من خيمتنا الكبيرة التي أقيمت هناك .

وقد لاحظت معالم الجذل والاعتباط على تلك الوجوه . وأشارت إلي زوجتي بأن أدنو منها . وبغية عدم بث الذعر في صفوف هذا الجمع النسائي درت دورة قصيرة فدخلت الى الخيمة من الجانب المقابل حيث أستطيع أن أسمع ما يقال دون ان يحس بوجودي أحد .

إن أعراب الصحراء وخصوصاً النساء هم على درجة من البساطة والتشوف والتطلع والفضول لا أستطيع تسميتها إلا بكونها صيبانية . لأن هؤلاء الأعراب رجالاً ونساء يوجهون أحياناً أسئلة تبعث على الدهشة من جهة ذكر ما لا يحسن ذكره وكشف ما لا يجب كشفه من الأشياء التي

ينبغي التكم فيها . واليكم نماذج من بعض الأسئلة التي صاغت سمعي والتي وجهتها النسوة البدويات الى زوجتي : هل لك أخوة ؟ هل هم متزوجون ؟ هل يسكنون جميعاً في بيت واحد ؟ كم يبلغ صداق الفتاة لديكم ؟ (لدى هؤلاء النسوة كان يبلغ صداق البنت بصورة عامة ٣٠٠٠ فرنك) هل لك منافسات غريمات ؟ لماذا تزوجت رجلاً عجوزاً قد جلل الشيب رأسه ؟ . . ولم يكن بطبيعة الحال هذا السؤال الأخير ليقع لدي موقعاً حسناً أو لأستقبله بالفرح وأنا زوج تلك المرأة التي يوجه اليها هذا السؤال : لماذا تزوجت رجلاً عجوزاً قد جلل الشيب رأسه ؟

ولكن الأسئلة بصورة عامة كانت مسلية لي ولزوجتي حيث كانت موضوع تندرنا في بقية تلك الأمسية حتى غلبنا سلطان الكرى .

وكان أشد ما ضايق زوجتي ونقص عليها حياتها في هذه الربوع هو وجبات الأكل الثقيلة التي رزئت بها وهي ما هي عليه من صحة بالغة الركافة . فقد دعيت وزوجتي الى مأدبة عشاء أقامها على شرفنا أحد رؤساء قرية مسيحية : « كانت المائدة عبارة عن لوحة كبيرة من الخشب مستديرة الشكل يبلغ ارتفاعها عشرين سنتيمتراً . ووضعت صينية نحاسية كبيرة ذات عرى وقد طفحت بالحنطة المجروشة (البرغل) الذي يعلوه قطع كثيرة من اللحم . ولضخامة الصينية كان يحملها رجلان . . ووضعت هذه الصينية في منتصف المنضدة الخشبية . وطرحت أوعية أخرى وصحون مختلفة تحتوي على ألوان من الأطعمة . وهذه الأواني كلها أحاطت بالاناء الأكبر الأول احاطة السوار بالمعصم وهو الاناء الذي غرزت فيه ملاعق خشبية . .

وما كدنا نتحلق حول المائدة حتى جاء رجل يحمل قدرأ مملوءة بالزبدة الذائبة (السم) التي غرف منها بملعقة كبيرة (مغرفة) غرفة كبيرة أيضاً

ورش هذا المائع الدسم على البرغل . وهذا العمل الأخير وحده كان كافياً لأن يسد شهيتي وشهية زوجتي الى الطعام فشبعتنا قبل أن نبلع حبة واحدة . ولكن ما العمل ؟

لقد تجنبنا كل التجنب المواضع الغارقة بافراط في ذوب الزبدة . ولكن اراقة السمن على هذه الصورة كانت بالنسبة لرب البيت وللآخرين مظهراً من مظاهر الكرم والأريحية بل مظاهرة لا بداء الاهتمام بأداب الضيافة وتقاليدها .

كنا أحد عشر شخصاً حول المائدة . وكانت القاعة تضج بكثرة الناس الذين كانوا ينتظرون دورهم . وما أن فرغنا من تناول حصتنا من الطعام حتى حل محلنا آخرون إلى أن طعم القوم جميعهم . . وعلى وجه التأكيد كان هناك مائة شخص ساهموا في هذا الاحتفال الدسم . أما مضيفنا فلم يشأ أن يجالسنا على المائدة بل ظل واقفاً على قدميه طوال الوقت ، ليقوم على خدمتنا ذلك لأن واجب رب الدار لدى العرب هو خدمة ضيوفه بنفسه .

أما العذاب تحت خيمة البدو فقد كان أدهى وأمر : « فقد جلب هؤلاء طستين نحاسيين يبلغ قطر كل واحد منهما سبعين سنتيمتراً وارتفاع كل منهما يصل الى عشرة سنتيمترات : فوضع الطست الأول أمامنا على الأرض ووضع الطست الثاني أمام المدعوين الآخرين . وكان هذان الوعاءان مملوءين بقطع من الخبز المشبعة الغارقة في المرق ، وقد علتها قطع كبيرة من لحم الضأن .

ولم تكن هناك ملاعق بالمرّة . فجميع الحاضرين كانوا يستعملون أصابعهم بدل الملاعق إلا أنا وزوجتي حيث استعملنا ملاعقنا وأدواتنا الخاصة . وكان الشيخ قد صمم على أن يقوم بشرف خدمتنا بنفسه . فأخذ قطع اللحم

الكبيرة ومزقتها بيديه أيضاً إرباً إرباً ووضعها أمام زوجتي وأمامي . ولم يكن يخالج هذا المسكين أي شك أنه بعمله هذا الذي يحسبه تكريماً وتقديراً لنا قد أثار اشمئزازنا وتقززنا ومنعنا من تناول الطعام .

فتظاهرت زوجتي بالمرض واكتفت بقليل من الشواء الذي هياه لها خادمنا . أما أنا فقد شاطرت زوجتي طعامها . ولكنني في الوقت نفسه جاهدت لتجنب اللحم الخارج من بين أصابع الشيخ الكريم واشغلت نفسي بما يشبه الحساء الذي كان راسباً في الأسفل ، وذلك بغية الابتعاد عن جرح عواطف مضيفنا لو تبينوا أننا لا نمس طعامهم .

وكان مسك الختام والطامة الكبرى تناول الشيخ الهمام رأس الخروف وسحقه بين يديه الحديديتين . . سحقه بيديه واستخرج منه المخ وتناول قليلاً من الملح ونثره فوقه . وبعد أن خبط كل هذا بأصابعه ولا ريب أخذ كمية من هذا الخبيص وقدمه الى زوجتي ونفحتي أنا الآخر بكمية ثانية منه باعتباره أنفس قطعة من قطع هذه الوجبة . .

وسقينا ماء بقعين كبيرين من الخشب . وكان القعبان يدوران على الأفواه كلها من فم الى فم . وقد لاحظت كذلك ان استعمال الملاقط (الماشات) أيضاً مجهول لدى هؤلاء القوم . ذلك لأنني شاهدتهم يتناولون النار بأصابعهم ليضعوها في غلايينهم . .

ولابد ان حاسة الشم لدى الاوربيين لايقبل اشمئزازها وتقززها عن حاسة الذوق لديهم . فاذا قبلنا بالتصديق ما يرويه لنا مسيو سيوفي النابه فاننا نكون قد تعلمنا في الواقع ان : « الاعراب رجالا ونساء يغسلون شعورهم بيول البعير . لانهم يزعمون انه يقوى الشعر ويطيله ويمنع الحشرات كالتامل والقراد وغيرها من ان تعشش فيه » (٢)

(٢) الرسالة المؤرخة في ٧ مايس ١٨٩٠ .

إن هذه العشائر المتحركة التي لاتستقر على حال من القلق لم تكن لتكتفي فوق كل هذا بسوم الفلاحين التعساء كل خسف وهوان . فقد كتب تاستو قصلنا العام في بغداد عام ١٨٥٧ يقول : « ان الحزازات القديمة تجعل هذه القبائل في تناحر وصراع لانهاية لهما . وهذه الخصومات تظل الادارة العثمانية توجب نارها بين هؤلاء الناس بتعمد ودهاء فتجعل حلقاتها متصلة لاتقطع . . هذه الادارة الداھية الماكرة البارعة في فن التفريق لاجل السيادة (فرق تسد) .

« ان معاليكم يعلم ان القبائل البدوية الكبيرة ترى نفسها المالكة الحقيقية لهذا الجزء من آسيا الصغرى وتعتبر المتحضرين من رعاياها . وحتى البلدان التي هي عواصم ولاة الحكومة التركية تعتبرها تابعة لها عليها ان تدفع الجزية اليها . والواقع ان الادارة العثمانية وهي ما هي عليه من الضعف ترى نفسها مرغمة على شراء مظهر الامن مقابل اعانات تدفع بصورة منتظمة الى رؤساء هذه القبائل الكبرى . وان التجارة لتفضل تضحية النفقات الباهظة على نهب قوافلها . هذه النفقات التي تدفع للترضية والتي اصبحت عرفا معمولاً به دون ان ينتظمها نظام . وان العشائر التي تتجول في اغنى اقسام آسيا الصغرى واكثرها سكانا ، لتتمتع بدخول هي في الحقيقة على اهمية بالغة . في حين ان العشائر التي تخيم في الفيافي النائية لاستفيد من هذه المغانم المباركة الا في فترات نادرة متباعدة ونتيجة لضلال بعض القوافل في متاهات الصحراء .

ومن هذه الحالة نشأت غيرة القبائل المحرومة من القبائل المحظوظة ونقمتها السوداء عليها . فاذا اضفنا الى هذه القسمة الضيزى ، الأحقاد والعداوات المتوارثة ، التي تنتقل من الاب الى ولده من جراء بعض المعتقدات

التي تجاهد الدبلوماسية التركية في تسميم افكار حملتها وادامة هذه المناحرات ،
أمكننا بسهولة ان نعرف لماذا تظل هذه القبائل تصطرع فيما بينها وتعيش
في حالة دائمة من الاقتتال ، يسفك فيها العربي دم اخيه العربي (٣)
ولعل اغرب المظاهر القتالية كان ما يسمى بـ « المناخ » . وتفاصيل قصة
المناخ نقلها الينا مواطننا الذي وصفها فاجاد وصفها . قال : « عندما تتلاقى
قبيلتان متعاديتان تكاد قوة كل منهما تعادل قوة الاخرى ولا تستطيع اي من
القبيلتين تجنب الاصطدام بالقبيلة الثانية ، سواء كان ذلك عن طريق المصادفة
والاتفاق او عن قصد سابق لتصفية المنازعات بمعركة حاسمة او نتيجة نزاع
حول التمتع بموضع من المواضع ، فان الطرفين يشتبكان في صراع على
طريقة « المناخ » او الحرب بصورة لا رحمة فيها ولا هوادة ولا ادخار
فضاعة .

وتجرى المعركة على الارض الحرة التي تفصل بين مخيمات الفريقين
المتناحرين . وتظل هذه الحرب الطحون مشتعلة الأوار خلال بضعة ايام
وأحيانا تدوم عدة اسابيع . ويبدى المتحاربون ضروبا من البسالة والمهارة
مع كثير من الصمود والثبات . . وكيف لا ونتيجة هذه المعركة يتوقف
عليها مصير عوائلهم ؟ . فهي عوائل سعيدة اذا كانت نتيجة المعركة هي
الاتصار . وهي تعيسة اذا منيت العشيرة بالخذلان . ولهذا تشهد النساء
سوح هذه المعارك من بعيد فينشدن الأماذيح بحق الرجال الشجعان ويقذفن
بالشتائم والاهانات وجوه الخوارين والجناء من الذكور . كما يمددن يد
الرحمة والمعونة الى المصابين والجرحى . وتقف في كل جانب وسط هذا
الهرج والمرج فتاة يافعة . تقف هذه الكاعب الحسناء ، وقد اختيرت من بين

(٣) الرسالة المؤرخة في ٩ كانون الاول ١٨٥٧ .

اجمل نواهد لعشيرة وهي تحمل انفس ما تحمله النساء من حلي وكأنها في يوم عيد وفد تجلبت بجلباب احمر صارخ الحمرة .

في حلبة النضال هذه يقف بعير مزدان بكل انواع الزينة وقد ارتفع على سنامه هودج كله لطائف وزخارف تخلب الالباب وتخطف الابصار . وفوق كل هذه الطرائف تنتصب الشابة الرائعة هاتفة مصفقة لاعمال هؤلاء . باعثة الشجاعة والاقدام في نفوس أولئك . وهي بمثابة هدف يستهدفه الاعداء ونقطة للتكانف والتآزر تستأثر باهتمام المدافعين عن حمى هذه الحساء .

اما اسر هذه الشابة الفتاة فمعناه انتصار اعدائها ووصمة عار في جبين كل فرد من افراد عشيرتها . لانها تصبح غريسة لمن ينجح في الاستحواذ عليها . وفي حالة انهيار احدى القبيلتين وعجزها عن الوقوف بوجوه خصومها وعدم استطاعتها مواصلة القتال فانها تعترف بانخزالها وتخضع لقانون الفريق الاقوى ، أو أنها تلوذ بالفرار تاركة لعدوها ما لا تستطيع حمله من كل شيء » .

وقد ينشب القتال احيانا بين افراد العشيرة نفسها وتسود روح الثأر والأنتقام بينهم فيفني بعضهم بعضا كما يحدثنا عن ذلك معتمدنا في الموصل فيقول عام ١٨٨٧ : « لقد وقعت جريمة اغتيال قبل اربعة اشهر في كركوك . وكان القاتل والمقتول ينتميان الى اكبر عائلتين من العوائل الاسلامية في هذا البلد . فالاول ينتسب الى عائلة ينحدر اصلها عن رسول الله محمد (صلعم) والثاني اقرباؤه شيوخ اقوياء يهابهم سكان ذلك الاقليم ، وبغية اخذ ثأر القتل عزم اقرباؤه على مهاجمة اقرباء القاتل . وتكتل ذوو القاتل وذوو القاتل في جبهتين ، كل جبهة تريد سفك دماء الجبهة الاخرى . وتوقع الناس اندلاع نيران معركة شنيعة بلغت انباؤها اسماع السلطات فاضطرت الى الالتجاء للقوة

لاعادة الأمن الى نصابه . . وكان رئيس اسرة القتييل بمن عرفتهم هنا . وقد طلب مني بوساطة مطران كركوك الكلداني ان اشمله واسرته بالحماية الفرنسية . فصحت هذا الشخص بالتزام جانب الهدوء واحترام السلطة واعدأ اياه بمساعدته في حدود الامكان » (٤)

وها انا سزى ان هذه الاخلاق العنيفة لم تكن من نصيب الناس البسطاء فحسب بل ان علية موظفي الدولة كانت تقوم باعمال وحشية ستحدث عنها ونضرب لها امثلة ايضاحية خلال قصتنا هذه . واليكم على سبيل المثال قصة من هذه القصص التي يرويها لنا عام ١٨٩٢ قنصلنا في بغداد مسيو پونيون : « ان الماريشال العجوز نصرت باشا — وهو المرافق القديم لجلالة السلطان والمبعد الى بغداد منذ خمس سنوات بعد ان حمل رتبة المفتش العام الفخرية — ان هذا الماريشال العجوز كان على وشك ان يغدو هدفا للاغتيال الذي كاد يحرم اوربا من عميد ماريشالاتها ! .

إن نصرت باشا — الذي يحسب نفسه مسؤولا امام الله عن اعوجاجات البشر — قد شرع قبل نحو عام فقط بانتزاع ما يمتلكه نقيب الأشراف فجرده من املاكه الفسيحة التي كان يمتلكها هو واسرته . وتقع هذه الممتلكات في ضواحي بغداد . وهي التي يقول عنها القائلون من خصومه أنه قد حاز عليها بفضل اعمال الغش والتدليس والنصب والاحتيال المصحوبة باحاييل الغدر والعنف والاكراه التي كان يحسن الجمع بينها صاحبنا المفضال ! .

بغية الوصول الى غرضه بادر هذا الباشا الى شراء هذه الاراضي من مالكةا الشرعي الاصيلي المسكين — وكان قد اغتصبها في الأيام الغابرة ذلك

(٤) الرسالة المؤرخة في ١٨ آذار ١٨٨٧ .

الشريف . وشرع الماريشال في انشاء مزارع نموذجية فيها واهداها الى جلالة السلطان . فنجم عن هذه البادرة اقامة دعوى . دعوى (هوميروسية) شهد الناس خلالها رؤساء محاكم ينتزعون من مقاعدهم وقضاة يحكمون تحت غائلة الكرباج (السوط) وموظفين من مختلف الرتب والدرجات يهددون من قبل المجلس الحربي و . . الخ .

ولدى سماع الماريشال بأن السكرتير الاول للوالي قد اغراه الاصفر الرنان فقبل الرشوة واخذ يمارس ضغطا على المحاكم — لدى سماع الماريشال العجوز لهذه الاخبار لم يشأ أن يترث فينتظر اختتام جلسات المحاكم بل أحاط نفسه بثلة من الجنود المكلفين بحراسته وانطلق كالسهم فوضع يده على الاراضي موضوع النزاع . ولكن في لحظة ترجله عن حصانه اطلق رجل افغاني من خدام صاحب النفوذ النار على نصرت باشا فصافت هذه الطلقة جسد الباشا مصافحة خفيفة وجرحت رجلاً من اتباعه (٥)

وبالرغم من سنيه الثمانين هجم الباشا على المعتدى عليه وكاد ان يخنقه لولا نجدة الافغانين الآخرين له ، اذ هرعوا الى مساعدته . فاختلط الحابل بالنابل وساد الصخب والضجيج في هذا المععان الشامل وتبادل الاطراف الضربات واللكمات الشديدة بغزارة بحيث بات كل مشترك في المعركة ضارباً ومضروباً في نفس الوقت . ان امثال هؤلاء الرجال كان من الصعوبة ان تنتظر منهم احتراماً وحرمة للجنس اللطيف في زمن كان ينظر فيه الى المرأة نظرة واطئة .

واستناداً الى نظرة هذه الذهنية السائدة للمرأة نرى قنصلنا في بغداد حين يروى في عام ١٨٩٤ خبر وفاة الامير ولي عهد مسقط ، شهيد غرام

(٥) الرسالة المؤرخة في ٥ آب ١٨٩٢ .

بأحدى بنات حواء — اذ نسب بعضهم هذه الوفاة الى لواعج الامير المتيم —
يضيف هذا القنصل قائلاً : « ان هذه الرواية لانصيب لها من الصحة
والواقع . لان كل من يعرف اخلاق النساء المسلمات يعلم ان الرجل العربي
المغتاض من حريمه لا يتردد عند الاقتضاء عن قتل جميع نسائه . اما ان يقتل
الرجل نفسه من اجل النساء او من أجل احدى النساء فانه امر لا يخطر له
على بال البتة » .

ولكن الرجال كما رأيناهم لا يتأخرون مع ذلك عن استخدام النساء
لاثارة حمية المحاربين وحماسهم . بل انهم يستعملوهن في بعض الاحيان
النادرة سفيرات الى جهة عليا من الجهات . وهذا ما حدث في عام ١٨٥٢
فان احد شيوخ العشائر الذي ثار ولكنه مني بالفشل والانحار تجاه القوات
المرسلة لقتاله وقمع تمرده قد ارسل — كما كتب ذلك قنصلنا في بغداد
مسيو تافرنيه احدى نسائه (وكان له تسع نسوة) لتفاوض قائد الحملة
التأديبية فاستقبلها الجنرال استقبالا فيه كل مظاهر التقدير والاحترام وانزلها
في حريم الباشا » .

فهل يعني هذا ان الزوج قد اعتمد على مفاتن زوجته اكثر من اعتماده
على مواهبه الدبلوماسية بغية الفوز بالنجاح في مهمته هذه ؟ ان مواطننا
لا يحدثنا عن هذا الموضوع ولكننا نسمح لانفسنا باعتناق هذا الرأي .

القسم الخامس

الادارة

في القرن التاسع عشر كان العراق مقسماً الى ثلاث ولايات هي الموصل
وبغداد والبصرة ، وعلى راس كل ولاية من هذه الولايات وال يجري تعيينه
وعزله من قبل السلطان . وكان يعتبر هذا الوالي بمثابة نائب الملك لانه كان
يتمتع بسلطة مطلقة . فله قيادة القوات المسلحة . وله فرض الضرائب وله
تطبيق الانظمة والقوانين . واقامة العدالة . وعلى عاتقه تقع اشاعة النظام
واستتباب الأمن . وعلى كاهله يرتكز عبء تنفيذ الاشغال العامة وادارة
الاعمال الحكومية ويرتبط بسلطته مرؤوسوه . وهكذا نرى بهذا التعداد
المهمات اهمية سلطانه وخطورة الدور الذي اسند اليه القيام به . فاذا كان
شهماً غيوراً متوقفاً الحماسة شاعراً بمسؤولياته بارعاً في تصريف الشؤون كان
لأقليمه أن يعيش في سلام ووثام واطمئنان . واذا كان على العكس من ذلك
شخصاً جشعاً طماعاً طموحاً متعصباً ، أو بالاحرى اذا كان خائراً العزيمة
متردداً متحرجاً ضعيفاً ، فان السكان حينئذ يقعون تحت نير التصرفات
الكيفية والاعمال التعسفية . فيئن الشعب تحت وطأة الضرائب
ويرزح ويتألم تحت غائلة غزوات القبائل البدوية وغاراتها ، تلك القبائل
المطمئنة من نتيجة اعمالها الوحشية لعدم ضرب يد العدالة لها بالعقوبات
الصارمة . ومن أمن العقوبة اساء الادب . ولذلك كانت مهمة قناصلنا لتوفير
الامن للمشمولين بحمايتنا وفرض احترام امتيازاتهم والدفاع عن مصالحهم
مهمة شاقة مرهقة .

ولسوء الحظ كان الولاة الأخيار من الكائنات النادرة : فقد كان العراق

في هذه الحقبة يتمتع بسمعة سيئة لا يحسد عليها لدى الباب العالي في
الاستانة : فهو في نظره منطقة نائية فقيرة موبوءة . وهو مسرح للقلقل
والاضطرابات المتواصلة . وكان المرشحون للمناصب الادارية من ضالة العدد
بمكان فلم يكن السلطان يرسل الى هذه الاصقاع في اغلب الاحوال سوى
الموظفين الفاشلين او المغضوب عليهم والضالين . ولما كانت الحالة على هذه
الشاكلة فان هؤلاء الولاة كانوا يجدون انفسهم مرغمين على الفوز برضا ولي
نعمتهم وسيدهم السلطان، عن طريق شراء الخطوة في اعين حاشيته بافدح
الاثمان . وكانوا يلجأون الى نفس الاساليب اذا شكوا محكوموهم من مظالمهم
بتوجيه استغاثات الى الباب العالي طالبين عزل المتغترسين الغاشمين عن
مناصبهم . فقد كتب مثلاً قنصلنا في بغداد البارون دي (فيمار) عام ١٨٤٦
بهذا الصدد يقول : يسافر غداً الى الاستانة احد انجال الوالي . وهو يحمل
في جعبته مبالغ ضخمة من النقود مخصصة لغرض كسب الانصار لجناب والده
الذي يخشى على ما يبدو من تدقيق تصرفاته القبيحة وسلوكه الشائن من
كتب ، بعد ان رأت الحكومة العثمانية رأي العين افاعيله المخزية « .
وعلاوة على ذلك فقد كان على الوالي قبل ان يباشر وظيفته ان يتعهد
بدفع مبلغ معين لخزينة السلطان في كل عام ، ذلك المبلغ الذي كان يمثل
ضرائب ولايته . فاذا اخل بتنفيذ شروط هذا العقد فانه يظل مواجهاً خطر
العزل والتسكع مذموماً مدحوراً . ولكنه من الجهة الاخرى اذا تعجل في
تنفيذ بنود العقد اكثر مما يجب فان المقامات العليا لدى الباب العالي لا تتردد
في لفت نظره وقرص اذنه الى ان خزينته ، كما هو ظاهر ، تنعم في بحبوحة
وسراوة حال ، فتفرض عليه هذه المقامات مبالغ اضافية جديدة يجب ان
يؤديها لهذا الباب . . وهكذا يرتفع رقم الابتزاز .

فكانت البراعة الفائقة اذن في ان يترث الوالى في تسديد المبالغ المفروضة عليه ما وسعته امكانيات التريث . وان يشترى في الوقت نفسه ضمائر وذمم افراد حاشية السلطان . وكان هذا كله يكلف ثمنا فاحشاً . ولما كان الموظفون لا يتقاضون رواتبهم في اوقاتها المعينة وبصورة منتظمة فان كل واحد من هؤلاء كان يبذل كل ما في وسعه من جهود لابتزاز اكبر المبالغ الممكنة من دافعي الضرائب وامن شملتهم الجباية . وفي عين الوقت ارسال اقل مبلغ ممكن من النقود الى خزانة الولاية .

وبالاضافة الى ذلك فان الولاية كانوا قليلي الاهتمام بجباية الضرائب بانفسهم . لان هذه الجباية كانت مهمة قد تتطلب في معظم الحالات ارسال حملات عسكرية حقيقية لمواجهة مقاومة افراد العشائر وامتناعهم عن الدفع . ولذلك فان هؤلاء الولاية كانوا يمنحون باللزمة جباية اموال ضرائب الدخول الرئيسية كضريبة الاعناق ورسوم الكمارك والمكوس . اذ يمنح التزام جباية هذه الاموال الى موظفين صغار سرعان ما يثرون على حساب جماهير الشعب . ولذلك فان مراسلات قنصلنا زاخرة بالشكاوى المؤلمة من مخازي هؤلاء الولاية العتاة المحليين واتهامهم باعمال تندى لها الجباه . وقد كتب احدهم وهو قنصلنا في الموصل واعنى به مسيو بوتنا عام ١٨٤٥ يقول : « ان الوالى الذي اتحدث لكم عنه معروف في كافة اصقاع الامبراطورية المترامية الاطراف بانه غول من الغيلان . ومنذ ان وطئت قدماه هذه البقاع هنا برر كل التبرير شهرته السيئة التي يتمتع بها من سوء الاعمال : وانني ساقصر على القول لمعالكم بأن هذا الاقليم قد سلم يداً بيد الى لص شقي قاطع طرق حقيقي في شخص هذا الوالى الذي لا يتورع عن اقرار كل الاثام . اذ لا قدسية لشيء في نظره . فلا حرمة لديه لحياة واموال وشرف العوائل والأسر . .

وقد تأملت كل التألم من كل ما جرى فعله هنا ... تأملت من مشهد المظالم المرتكبة كما تأملت من وقاحات الباشا الشخصية ومن قحة وقلة حياء افراد حاشيته الأراذل .

وقد وجب علي ان اشدد من رغبتني في عدم تشويش وارباك سياسة حكومة الملك بمعارك في غير اوانها لاجل ان اتحمل بصبر ورباطة جاش كل هذه الاعمال المقيتة التي تبعث على التقزز والاشمئزاز . واني بوصفي معتمداً بسيطاً يجب علي واوثر كذلك ان اتوجه الى سفارتنا في الاستانة لتبذل كل جهودها لاقرار العدالة هنا في نصابها ، وتثبيت قواعد حقوق الانسانية » . وكانت عقبي هذه المساعي عزل الوالي موضوع البحث من منصبه بعد فترة قصيرة . وفي معرض التحدث عن خلف هذا الوالي يلاحظ قنصلنا « قلة احتمال ان نجد في الخلف الجديد رجلاً من درجة وحشية ولؤم وخسة السلف الطالح (١) » .

وساقص في الصفحات التالية قصة بعض المنازعات والمشادات التي وقعت لمثلينا ودام بعضها بضعة سنوات احياناً مع بعض موظفي هؤلاء الولاة . ولكنني ساقصر نفسي في هذه اللحظة على كشف الستار عن بعض الحالات النموذجية من قضايا الاختلاس والاستهتار الادارية التي تنطق بلسان افصح وابلغ من كل ما عرف من السنة الفصحاء والبلغاء معتمداً في ذلك على رسائل مثلينا .

واليكم بادىء الأمر نموذجاً من نماذج قضايا الاختلاس . وقد روى لنا تفاصيل الحادث نائب قنصلنا في الموصل عام ١٨٧٩ الا وهو مسيو « بيريسيه » . قال : « قبل ربح من الزمن عين لعقرة قائم مقام شاب على درجة

(١) الرسالة المورخة في ٧ اذار ١٨٤٥ .

ولكنه كان كذلك على درجة لا بأس بها من الهوج والطيش . ولم يكذب
يمضي على ادارته لهذه البلدة اربعة اشهر حتى انهالت الشكاوى ضده من
كل حذب وصوب . فلقد اتهمه المتهمون بالاختلاس . بل اتهموه كذلك بانه
في حالة من حالات الهياج والنزق قد مزق ، ان لم يكن قد قطع بعضه من
اسنانه ، اذن احد الموظفين لديه . فاستدعي هذا الموظف الى الموصل ليقيم
الحساب ويجب عن تصرفه . فتشجع الاهالي المساكين وتجرأوا فزحفوا في
جموع حاشدة ظنا منهم ان هذا الموظف قد عزل من منصبه الى الابد وطالبوا
بانزال العقاب في حقه واعادة الاموال التي سلبها اياها اليهم . فارسل الوالي
الى عقرة احد اعضاء مجلس ادارته مزوداً بأمر القيام بالتحقيق الدقيق في كل
هذه الاتهامات . ولما كان هذا الرجل معروفاً بانه لا يملك وسائل اخرى للعيش
سوى اموال الاختلاس — وهذا ما لا ينكره هو نفسه — فقد قدم لدى عودته
تقريباً الى انظار الوالي يؤكد فيه تأكيداً مطلقاً براءة ونزاهة واستقامة المتهم
الذي اشترى هذه الشهادة الفاجرة الكاذبة بمبلغ قدره سبعمائة فرنك . فاعيد
المتهم الى وظيفته وتقلد من جديد سلطانه وأرغم الفلاحون ارغاماً وبأسرع من
لمح البصر على تقبل تسوية سرية فرضها عليهم خصمهم واصدقاؤه ، تلك التسوية
التي قضت عليهم بالتنازل عن كافة مطالبهم لقاء دفع القائم مقام اليهم
ثلث مبالغ مدعياتهم » (٢)

اما الاستهتار الاداري فلم يكن لتقل درجته عن هذا الدرك . لاسيما
في الحقل القضائي ، وذلك اذا بنينا حكماً على القصة التالية التي حدثت
في عام ١٨٧٦ والتي روى تفاصيلها لنا ممثلنا في بغداد ميسو ديستري . فقال :
« لقد تلقى والي الحلة الامر من القسطنطينية بتنفيذ قرار الحكم بالاعدام

(٢) الرسالة المودوخة في ١ تموز ١٨٧٩ .

الصادر ضد مجرم يدعى (عبد الكريم) الذي حكمت عليه المحكمة المحلية في بعقوبة بالموت شنقاً . فالتبس الامر على مدير الشرطة المكلف باخراج المحكوم عليه من سجنه وتسليمه الى جلاديه توهما منه في الاسماء ، اذ قد ظن ان القضية تخص شخصاً اسمه (عبد) وهو مجرم آخر موقوف بناء على ارتكابه جريمة سرقة .

ولكن رغم احتجاج هذا المجرم الاخير وقوله بعدم امكان صدور حكم من هذه الدرجة بحقه فانه قد اقتيد الى محل التعذيب وربط في ختام العملية بالمشقة . وفي هذه الاثناء بلغت اخبار الحادثة اسماع الوالي فارسلى على الفور امره بايقاف التنفيذ . فاسرع الجلادون بحل رباط عبد واستطاع هذا المسكين كما قيل ان يعاد الى الحياة بفضل كثرة العناية والاهتمام . فتمد انزلت العقدة الجبلية الملتفة حول رقبتة عنها بعد ان كادت تخنقه ولامست ذقنه . . واذ ظن السراى بادىء الامر ان عبداً قد مات فانه قطعاً لتيار التاويلات المحزنة المرتقبة اشاع ان هذا المحتجز هو كذلك سفاك اثم وان قد حكم عليه فعلاً بعقوبة الاعدام وذلك قبل لحظة تنفيذ عقوبة الاعدام فيه بضع ساعات او على الاكثر ببضعة ايام . ولكن الفطرة الشعبية السليمة قد اعترضت على هذا الزعم فردت عليه وهي مصيبة في ردها بان هذا العذر يبعث على الرحمة والاشفاق بالسلطة وان هذه الفطرة تقول باننا حنى لوسلمنا ، مدى لحظة واحدة ، بحقيقة هذه الواقعة فيجب ان نعترف حينئذ بان الصدفة وحدها ستكون هي وحدها المكلفة لدى ذهول السلطات المحلية باظهار هذا التمييز بين الخطأ والصواب . بالغاً ما بلغ من الضالة هذا التمييز « (٣)

وكان الاستهتار يمتزج في احايين كثيرة بالاختلاس نكابة بالطبقات

الفقيرة التي يوقعان بها افدح الاضرار : وذلك ما حدث بصورة واضحة في عام ١٨٨٠ عندما اجتاحت موجة القحط شمال العراق بأسره . والخير لنا ان نرهب اسماعنا الى صوت قنصلنا في الموصل مسيو سيوفى ليقص علينا قصة هذه البلوى : « لقد تحول القحط الى مجاعة حقيقية اخذت وطأتها تشدد يوما بعد يوم . فكانت اعداد كبيرة من سكان الارياف تترك في كافة الايام قراها مولية وجوهها شطر مدينتنا بحثاً عن الرغيف بعد ان طوح بها الجوع وضاعت بها ديارها . وقد استحال المئات من سكان هذه المناطق الذين ينتمون الى الطبقة الكادحة الى فقراء متسولين يئنون تحت وطأة البؤس ويتضورون من الجوع ويشكون من قلة العمل . وكان لهجوم هذا الجيش العرمرم من سكان الريف ومن الشغيلة المعوزين وكلهم حائعون ، اثره في زيادة عدد الجائعين الذي لا ينضب له معين . اذ انه في ظرف شهر واحد ضاعف عدد فقائنا ثلاثة اضعاف . فاضطر بعضهم تحت لهيب الجوع الى اكل لحوم جثث الحيوانات . وقد اكد لي احد الضباط بحضور الوالي ن خمسة اشخاص كانوا يموتون من الجوع في كل يوم في مدينة الموصل . . ولم تكن الخنطة وحدها تباع بسعر فاحش بل ان كافة المواد الغذائية قد ارتفعت اسعارها ارتفاعاً رهيباً . فاستفاد المحتكرون استفادة كافرة من هذه الفرصة . فاثروا ما وسعهم الاثراء على حساب الفقراء التعماء . . وكانت كل كمية من الخنطة تصل الى السوق تنتهب من قبل المسلمين الجائعين رغم قيام السلطات المحلية بحراستها بواسطة قواتها المسلحة .

وحالة انتهاب الخنطة هذه جعلت من الاستحالة بمكان على المسيحيين ان يشترؤا منها بالنظر لانهم اضعف من المسلمين . وقد تحدثت مع الوالي عن هذه الحالة . وتم الاتفاق بيننا على ارسال جزء من هذه الخنطة الى الرؤساء

الروحانيين لهذه الطوائف الذين سيقومون بعمليات بيع الخنطة في بيوتهم الى رعاياهم كلما احتاجوا اليها وكلما تيسرت . ولاذ بعض متعهدي أرزاق الجيش بالفرار لانهم افسسوا من جراء غلاء الاسعار . ولانهم من جهة اخرى لم يعودوا يجدون الكميات اللازمة من هذه الأقوات التي هم مكلفون بتوفيرها للقوات المسلحة . . وكانت الفاقة في كركوك أشد من الفاقة في الموصل . فقد كتب مطران هذه المدينة الكلداني الى بطريركه يقول ان ثلاثين شخصاً يموتون في كركوك كل يوم . وعانت عصابات اللصوص وقطاع الطرق في الارياق . فهم يهاجمون القرى ويستولون على كل ما يجدونه دون ان تتدخل السلطة فتقدم اي نجدة للضحايا المساكين . وقد اكد لي بعضهم ان قرابة اربعين قرية قد هجرها سكانها . . وزاد عدد المحتكرين فاصبحوا يؤلفون جمهرة ظالمة . . فبعد ان جمعوا منذ بداية السنة كميات كبيرة من الخنطة والشعير فانهم اخذوا يستعملون وسائل جهنمية خفية تؤدي الى رفع الاسعار . وقد شجعهم على ذلك وضعهم الخاص وضعف همة والينا الذي يسر لهم طرق الافلات من العقاب على تصرفاتهم الاجرامية . فهم يزعمون نفاذ الخنطة لديهم ولكنهم في الوقت نفسه يبيعون حبوبهم بصورة سرية بسعر يبلغ عشرين مرة او خمسة وعشرين مرة اكثر من سعر التكليف . وقد اسخطت حالة هذه الامور جماهير الشعب . فان رئيس البلدية الذي ضاعف ثرواته اربعة اضعاف وذلك بتضحيته مواطنيه قد اهين اكثر من مرة في الشارع بل هدد بالموت في رابعة النهار . واصبح الاهالي لايتحفظون في ابداء تذرهم لاتجاه السلطة ولاتجاه الجامعة الاسلامية نفسها فقد كفرهم الجوع . فنحن نسمع لعناتهم للحكومة العثمانية نفسها التي يهتف المسلمون انفسهم بسقرطها . وهم يتمنون حكم دولة مسيحية . وقبل

عدة ايام قالت لي امرأة بصوت عال وقد وقفت على باب سراي الحكومة ذاته حيث احتشد جمع غفير من الناس : (بارك الله فيك فانك خير من المسلمين مادمت تحنو على الفقراء) (٤)

ولهذا فلا ينبغي لنا ان نعجب اذا وجدنا المعنويات العامة قد سفت اسفاً عظيماً امام هذه النماذج من الحوادث ، واليكم ما يقوله بهذا الصدد في عام ١٨٩٥ مسيو يونيون قنصلنا في بغداد واصفاً الحالة « ان اعمال النصب والاحتيال هي بالاجمال الصناعة الوطنية للعراق . وقد تسربت الى المسيحيين واليهود . ولا اعتقد ان في بغداد كثيرين من التجار البارزين الذين لا يستحقون ان يكونوا من نزلاء السجون . لو كانت العدالة العثمانية عدالة صحيحة فهذا جزاؤهم العادل . وان كلمة اللصوصية بالنسبة للرجل المسيحي من اهل البلاد لاتنطبق الا على اعمال قطاع الطرق المسلحة . وكل فرد يوفق في الحصول على اي مبلغ كان لايعتبر في نظر هؤلاء قد ارتكب (جريمة سرقة) سواء كانت الوسائل التي التجأ اليها من اعمال النصب والاحتيال ام كانت من اعمال الغش والتدليس لان الناس لا يقولون عنه قد (سرق) وانما يقولون قد (اكل) .

واذا كانت اللصوصية ممنوعة فان الاكل ليس مشروعاً فحسب بل انه فوق ذلك عمل يشرف صاحبه . واني على اعتقاد جازم بعدم وجود فرد لايشتهي ان يدخل حتى في خدمة شركة اجنبية على امل استطاعته (ان يأكل) أي أن يسرق » (٥)

ولكن من حسن الصدف ان الحكم لم يكونوا دائماً متعصبين جشعين . فبعضهم قد خلفوا في البلاد ذكرى الاداريين المستقيمين الزهين والبارعين

(٤) الرسالة المؤرخة في ٢٣ شباط ١٨٨٠ .

(٥) الرسالة المؤرخة في ٦ كانون الاول ١٨٩٥ .

أيضاً . وفي هذه الحالة كان ممثلونا هم الاوائل في الاشادة بهؤلاء الاطياب .
واليكم على سبيل الاستشهاد رشيد باشا الذي عين في بغداد عام ١٨٥٣ فمذ *
وصوله الى هذه الديار اخذ يدفع رواتب العساكر عن السنتين الفائتين .
كما شرع في اطلاق سراح المسجونين تعسفاً واعتباطاً . وكذلك أشاع الأمن
والطمأنينة في ربوع البلاد وعلى الاخص هدد وتوعد الخونة والمتلاعبين .
فقد كتب قنصلنا يقول : « لقد بلغ كافة الاداريين المسؤولين عن الاموال
العامة ان حساباتهم ستدق منذ هذا اليوم من قبله هو ، وان اكتشاف أي
تلاعب او غش ستكون عاقبته عقاب الجاني بعدد من المءارع مساو لعدد
قروش المبالغ المسروقة ، ودون أي اعتبار لمركز الموظف او رتبته » .
وبفضل هذه الاجراءات الحازمة استوفيت الضرائب يسر وسهولة وتدققت
الاموال الى خزائن الولاية وانتعشت التجارة وازدهرت . ولكن لسوء الحظ
مات هذا الموظف النموذجي فجأة في عام ١٨٥٧ ولم يكن لخلفه « أي سراوة
في الخلق يطمأن اليها ولا أي كلمة يصح الاعتماد عليها مع تعجل في الاحكام
المبتسرة يجعله يتبنى دون تثبت او اعمال روية اي خطة مغرية . ثم يركبه
التهور لدى اهون عقبته او عائق واحياناً لى أي خاطرة تخطر في باله
فتؤدي به هذه الحالة الى تنفيذ خطة اخرى دون الالتفات الى خطة الامس .
هذا بالاضافة الى ضعف في الارادة يحمله على اصدار الامر بعمل شيء في
هذه اللحظة ولكنه لا يكلف نفسه « بمراقبة تنفيذ هذا الامر » . ولهذا
أصبحت حالة الولاية في تدهور سريع مستمر لم تكن كذلك في ايام
رشيد باشا .

(*) ويعرف بـ (كوزلكلي محمد رشيد باشا) تولى بغداد من ١٨٥١-١٨٥٦ وخلفه
بعد وفاته الوالى سردار اكرم عمر باشا من سنة ١٨٥٧-١٨٥٩ .

وحينما كان يتفاهم الوضع وتبلغ الفوضى اوجها كان الباب العالي يرسل احياناً مفتشاً له صلاحية واسعة على عدة ولايات . ومهمته مراقبة اعمال الموظفين ومن ضمنهم الولاة ووضع حد لسوء تصرفاتهم . وهذه هي الحالة في عام ١٨٩٢ لدى تعيين من يدعى عمر باشا والياً على اقاليم الموصل وبغداد والبصرة الثلاثة * إذ اظهر بادىء بدء قنصلنا في الموصل سيوفي بعض التشاؤم يوم علم بالخبر . فكتب يقول : « ان هذه المهمة صعبة شاقة بقدر ما هي مؤلمة موجعة ، نظراً لأن المظالم والتعسفات قد بلغت من الكثرة والتفاهم منذ اعوام في كافة فروع الادارة المدنية منها والعسكرية بحيث اننا لانجد اي فرع من الفروع ناجحاً من الاصابة بيلابها . »

ولكن مواطننا تملكه الدهشة لدى رؤيته تصرفات عمر باشا فيفضي الينا بعجبه قائلاً : « الان وقد ابصرته منهمكاً في اعماله استطاع ان ادلى بشهادة ناضجة منصفة عنه فاقول ان له مزاياه كما له عيوبه . ولكن قلما توجد مزاياه لدى الموظفين الاثراك فهو مثال على الاستقامة . وان عدالته في اغلب اعماله تساوى صلابته ونشاطه . . لقد طبق بعض العقوبات القمعية الزجرية التي ترقى الى النظام القديم والتي يستحق المؤاخذة عليها . لان القوانين الحالية لم تعد تسمح بتطبيقها كأمثال عقوبة الجلد وعقوبة اخرى تنحصر في الطواف بالمجرم في شوارع المدينة ، يتقدمه مناد (دلال) مكلف باعلام الجمهور بجرم الرجل المطاف به . وقد طيف على هذه الشاكلة بقاض كانت له شهرة واسعة بصورة خاصة ببراعته في اساليب بيع العدالة . فطبقت على رأسه الطريقة التي كانت تطبق في زمان الخلفاء . اذ عرض في شوارع المدينة

(*) لم يول على بغداد في هذا التاريخ وال باسم عمر باشا وكذلك في الموصل .
وفي بغداد تولى حاج حسن رفيق باشا (١٨٩١-١٨٩٦) وفي الموصل عزيز باشا (١٨٩١-١٨٩٣) .
(س ١٠)

محمولا على ظهر حمار ووجهه الى الخلف الى جهة ذنب الحمار . .
ولكن هذه العقوبات التي اكل الدهر عليها وشرب منذ عهد بعيد قد
فعلت مفعولها فأرهبت الاشرار ذوى النوايا السيئة ومنعت وقوع الكثير من
حوادث الشر . . وتجاه هذه الاعمال المختلفة اصيب جميع السكان بحيرة
وذهول وذلك لانهم لم يتعودوا على شدة مطلقة من هذا النوع جديدة كل
الجديدة على قاطني هذه البلاد . فوقع الاشرار والجناة تحت تأثير الشعور
بالجيروت والرهبوت . اما شرفاء الناس وصلحاؤهم فقد غمرهم الشعور
بالعادة برؤية هذا القطر وقد تخلص من العديد من صغار الطغاة واخذ
يعيش في ظل نظام قوامه انصاف الناس وطمأنة نفوسهم . اما انا ياسيادة
الوزير فانتى اعلن والفرح يهزني اننى لم ار بين مئات الموظفين العثمانيين
الذين عرقتهم منذ انخراطى في سلك هذه الوظيفة قبل اثنين واربعين عاما
موظفاً تضاهي نزاهته واستقامته نزاهة هذا الرجل واستقامته . وهذا الرجل
هو عسكري اكثر من كونه رجلاً اداريا . فتراه يتعجل بل يلجأ الى العنف
في حل القضايا . ولكن اذا تركنا جانبا هذه الظاهرة ، فبوسعنا القول ان
له مزايا عالية : فهو صارم تجاه المجرمين وهو في الوقت نفسه على استعداد
تام لقبول توبة التائبين وندم النادمين . وهو عطوف على الفقراء رحيم بهم .
وهو أب مناصر للمظلومين . . وهذا الرجل يعمل ليلاً ونهاراً حتى لقد
اضرت بصحته مشاغله الكثيرة فوقع مريضاً . وقد دعوته للاستحمام في منزلى
الريفى . وطوال الخمسة الايام التي قضتها في الريف معنا لم يكف عن العمل .
ولكنه على الأقل كان ينام في الليل . وهذا النوم جعله يتماثل للشفاء (٦)
ولكن لسوء الحظ دارت هذه التجربة دورة سيئة : فقد ذاق عمر باشا

(٦) الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب ١٨٩٢ .

طعم الفشل المرير لدى محاولته فرض عملية احصاء النفوس في الموصل
(راجع القسم الرابع) ولم يستطع ان يغتفر لسكان هذه المدينة موقفهم
المشين فشرع يتصرف يتصرف الطغاة واخذ اهالي الموصل بالشدة والعنف .
ووصلت انباء هذه الاعمال الى اذان الباب العالي فأمر باجراء تحقيق كانت
عقبه عزل عمر باشا من منصبه ولم يكن قد مضى على تعيينه غير ستين .
وبعد هذا العزل بمدة طالت او قصرت أودعت مهمة ماثلة لمهمة عمر
باشا الى عهدة المارشال العجوز نصرت باشا الذي يصوره لنا فيحسن تصويره
قصلنا في بغداد فيقول ما يلي : « لقد تربى مع السلطان عبد المجيد . وان
لم يكن محبوبا فهو على الاقل محترم من قبل السلطان الخالي الذي يعتبره خادما
قديماً لاسرته ولذلك اولاه كل رعايته واهتمامه وانعاماته . وهو شريف كاشرف
ما يكون الانسان الشريف . ويحمل بين جنبيه نوايا طيبة ويحولها الى اعمال
جليلة . ولكنه خلق لنفسه اعداء في كل مكان حل فيه وذلك بسبب صراحته
الجارحة وحميته اللاهبة في مقارعة الاعمال التعسفية واستغلال النفوذ .
وكذلك من جراء مزاجه الحاد والجروح التي تحدثها شقشقات لسانه العنيفة .
وبعد عدة مواقف من نزواته التي لانهاية لها في بعض الولايات لم يعد الوزراء
يعرفون ما يجب ان يتخذوه من أوضاع تجاه هذه الشخصية التي كانت تسمى
الاشياء باسمائها ولا ترعى لشيء حرمة او احتراماً اذ انها لم تتورع حتى عن
كشف مساوئ الوزراء انفسهم . لذلك فقد ارسل الى بغداد حاملاً لقب
مفتش . وها هو في بغداد منذ بضع سنوات يقضي اوقاته في البرهنة على ان
كل الشؤون الادارية تجرى بصورة معكوسة وتقف وقوفاً مقلوباً راسها الى
الاسفل ورجلاها الى الاعلى . كما انه ينهمك في بعض الاحيان بارسال
بعض البرقيات الى السلطان نفسه الذي يقال عنه انه يتسم لهذه البرقيات

ولا يقيم اى وزن لأراء هذا المارشال « ، (٧)

وحين نقرأ السطور التي كان يخطها قنصلنا في بغداد مسيو پونيون عام ١٨٩٤ بعد تجربة طويلة له في تركيا فاننا ندرك ادراكا افضل حقيقة الوضع في العرق انذاك . قال قنصلنا . « ان والينا الجديد لا هو متعلم ولا هو ذكي : انه اداري فاشل لا يستحق درجة الصفر في الادارة . ولكنه هشوش بشوش في وجوه الاجانب ويعمل كل ما في وسعه لارضاء الناس كافة . ولم يقطع القناصل ابدأ عن كيل المديح والثناء له . وعذرهم وعذري في ذلك ان الاساليب المحزنة التي كانت تصرف بموجبا الشؤون في عهد سلفه الطالح قد حملتنا حملاً على الاعتقاد بأن الولاة الجهلاء في بعض الاحيان هم افضل الولاة » .

وكانت التبدلات دائمة الحدوث في صفوف كبار الموظفين الذين كان مصيرهم معلقاً اما بالحظوة لدى رئيسهم المطلق واما بالدسائس التي كانت تحاك ضدهم من قبل زملائهم الموظفين الكبار لدى بلاط السلطان . وفي مطلع هذا القرن كانت تصاحب هذه الدسائس احياناً بعض الحوادث الدامية . . ويقص علينا نائب قنصلنا في البصرة مسيو فوتانييه عام ١٨٣٦ كيف تم وضع حد لنوع من انواع الدكتاتورية . . تلك الدكتاتورية التي كان يمارسها حيثئذ على رؤوس اهل بغداد وال يدعى داود باشا الكرجى الاصل * * « لم يكن سارقاً اقل مما كان عليه محمد علي * * في ميدان السرقات

(٧) الرسالة المؤرخة في ه حزيران ١٨٩٤ .

(*) داود باشا الكرجي ١٨١٦-١٨٣١ اخر ولاة المماليك ببغداد ، وقد سولت له نفسه الانفصال عن الدولة العثمانية والاستقلال ببغداد فوجه اليه السلطان محمود حملة قوية بقيادة والى حلب علي رضا باشا اللاز ، والذي أنهى حكم المماليك بجمعهم في قلعة بغداد والابعاز بقتلهم جميعاً . فاعاد بغداد والعراق الى حظيرة الدولة العثمانية ، دامت ولاية علي باشا اللاز لبغداد ١٨٢١-١٨٤٢ . (س١٠)

(**) يقصد محمد علي باشا الذي استقل بحكم مصر ١٨٠٥-١٨٤٨ وتولى الحكم بعده اولاده وذراريه حتى قيام ثورة ٢٣ يولييه عام ١٩٥٢ . (س١٠)

ولاطاغية اقل مما كان عليه محمد علي ايضاً في حلبة الطغيان وقد حدا حدو محمد علي وحكاها محاكاة فريدة فاحتكر لنفسه كل الاشياء وجرّد جميع تجار ولايته من اموالهم واغنى بعض خدامه . ولكنه الى جانب هذا كان مؤدباً كأمثل ما يكون الرجل المهذب مع الاوروبيين . وكان يعامل المقيم البريطاني ونيافة مطران بابل معاملة ممتازة خاصة (وهذا المطران كان حينئذ كما هو معلوم مكلفاً بالدفاع عن مصالحنا) . فارسل الباب العالي ضده علي باشا . وهو باشا حلب . ولم يلبث هذا الباب ان نشر بعض الفرامين التي تجعل الناس — الذين يجهلون احوال هذا القطر — يتصورون ان الباب العالي قد يقوم ببعض الاعمال العامة احياناً في سبيل الصالح العام . وقد كتب الانتصار لراية علي باشا الذي ارسل داود باشا الى القسطنطينية حيث شمله عظمة السلطان بعفوه فقلده رداء العفو الابيض . اما بغداد التي خربتها مساوىء داود باشا فقد اجتاحت نصفها الفيضان . واما الجيش الذي خفقت اعلام واليه المظفرة فقد حمل الى اهالى بغداد الطاعون .

وحين دخول علي باشا الى هذه المدينة لم يقلد قط اصدقاء وخدام داود باشا اردية العفو البيضاء : بل قطع رؤوسهم جميعاً . وكانوا يعدون مائتين او ثلثمائة من الجيورجين الذين نجا منهم اثنان فقط فهربا بجلديهما الى فارس . وقد نجم عن بيع نسائهم واولادهم مبلغ ضخّم جسيم . . . ويجب ان نقول اكراماً لوجه العدالة ما قيل عن داود باشا اثناء خروجه من بغداد من انه عهد بانصاره الى خلفه واثار عليه بصورة ودية بان يقطع رقابهم . وهذا ما فعله علي باشا فقد قطع رقابهم ولم يتورع حتى عن قطع رأس نجل داود باشا نفسه البالغ من العمر عشرين عاماً .

وعلي باشا مرتكب هذه المآسي ليس اشدّ ضراوة من أي تركي آخر :

اذ يقال عنه انه جواد كريم سمح الخلق على طريقة ابناء جلدته الاتراك . فهو يتصرف تصرف الرجل الوديع مع الناس . وهو مهذب تجاه الاجانب ولم يكن بدءاً في الولاة . فهو على العموم حاكم لا يشتكى منه جور ولا يحمد له عدل » .

وبعد هذه الفترة بخمسين عاماً لانت الاخلاق وهبت عليها نسمات اللطافة واصبح السخط على احد والاستياء منه لا يؤديان دائماً الى تنفيذ احكام الاعدام . ولكن مقدرات الموظفين لم تعد اقل تعرضاً للعواصف والزوابع . وكان الولاة لا يفتأون عن مراقبة المناورات التي تحاك ضدهم في القسطنطينية مراقبة دقيقة ، وكانوا يتفادون شر هذه الدسائس عن طريق تقديم الهدايا التي تكسب لهم اصدقاء لدى حاشية السلطان .

هذا وليس بوسع ادارة قد اعتورها الضعف ونخرها الفساد ان تأنس في نفسها السلطة الرادعة لجموح السكان . ولكن هذه السلطة النخرة كانت تمارس بمهارة فن « فرق تسد » . واليكم ما يقصه بهذا الخصوص قنصلنا العام في بغداد خلال عام ١٨٤١ مسيو دى فيمار . قال : « ان سياسة الباشا تنحصر في تأريث نيران العداوات الطبيعية بين جموع العشائر الكبيرة الذين هم فوق ذلك لا يتوقفون عن شن الغارات على العشائر الصغيرة . والباشا هذا لا يسلط زبانيته على هذه العشيرة ويذيقها طعم العذاب الا ويغدق نعمه على العشائر الاخرى في الوقت نفسه . حتى حذت العشائر حذوه في سلوكها مع بعضها . . ولهذا ساءت الحالة في هذا القطر واصبحت تبعث على الحزن والأسف . ولما كان الامن مفقوداً فان الاراضي تظل مهجورة . اما افراد القوات النظامية فلم تدفع لهم رواتبهم منذ ثلاثة عشر شهراً . ولهذا يظهرون بين حين واخر بمظهر التذمر فيقومون بتمردات وعصيانا

صغيرة . أما الاعراب المحذون بتخوم القطر فلا تكبح جماحهم الا بعض الخدع الطفيفة التي تنطلي على ذقونهم وإلا باتباع اساليب تفريق الصفوف وتمتيت الكتل التي يحسن الباشا اللعب على حبالها بمهارة فيضرب العشائر بعضها ببعض ، ومع ذلك فانه لم يكن ليصل الى تحقيق مآربه الوضيعة لولا مساعدة الخصي العجوز له (كذا) المسمى (ملا علي) والذي هو في الحقيقة والواقع سيد المدينة .

وملا علي هذا الذي كان قاسياً كل القسوة في شبابه وفي كهولته مثله مثل كافة الافراد من شاكلته يبدو الآن على خلق يتسم بشيء من الاعتدال والهوادة . وهو بذاته لم يكن ليحسب له حساب ولكنه بتزوجه من احدى بنات شيخ من الشيوخ يجله ويحترمه الاعراب لانه من اشرف الاسر الاصلية قد اكتسب بهذه الوسيلة نفوذاً يمارسه على بعض العشائر المجاورة لبغداد .

وبمعاونة هذه العشائر اصبح يهاجم ، في احيان كثيرة ، العشائر الاخرى فيكتب له النجاح ويخمد فورة هؤلاء المساكين بوسائل اجرامية فظيعة لا يتورع عن استعمالها . ومنذ ان وضع نفسه في خدمة الحكومة المحلية قبل بضعة سنوات فانه يقيم على ابواب بغداد قوة من الخيالة اللانظامية التي يعتمد عليها دون انقطاع في شن الغارات في الصحراء لفرض الاتاوات على عشائرها او لقمع أي تمرد او عصيان ضد السلطات المحلية يحدث في تلك الربوع . (٨)

وقد ظلت هذه الاجراءات حتى بعد خمس سنوات من هذه الفترة هي هي . ولكن اضيف اليها شيء جديد هو الاختلاس فازداد الطين بلة .

واليكم ما كتبه فصلنا بهذا الشأن . قال « ان سياسة الباشا ليست هي ضرب العشائر بعضها ببعض فحسب ولكن بخلق منافس دائم لكل شيخ من الشيوخ ومن بين اعضاء اسرة الشيخ نفسها . وفي ايام حكم اسلاف الوالي الحالي كانت لهذا الاسلوب غاية سياسية او ادارية . وكان لهذا الاسلوب كما يكون لكل اسلوب معقول قواعده وحدوده . أما اليوم فليس للوالي الحالي من غرض الا اكرام الشيوخ وارغامهم ، لاعلى زيادة مبالغ الاتاوات التي يؤدونها الى السيد الكبير فحسب ، ولكن اجبارهم على اضافة مبالغ هائلة اخرى بصورة سرية فوق المبالغ المفروضة عليهم من قبل تدفع الى الوالي والى عائلته . ولاجل حملهم قسرا على تنفيذ هذه الطلبات فان الولاة كانوا يقومون باتصالات يومية مع اشخاص من اقرباء الشيوخ يطمحون الى قيادة العشيرة وترأسها : وتبذل الجهود السرية او العلنية لصالح هؤلاء الطامحين فور عرض مشروع زيادة هذه الرسوم الاخيرة وذلك لاحتمال احلال المتطلعين الى الرئاسة محل الشيخ الذي يمارس اعمال الرئاسة فعلاً ، فينجم عن هذه الحالة الحرجة تيجتان على درجة كبيرة من الخطورة . النتيجة الاولى هي ان اقل تردد يديه هذا الشيخ في ارضاء الطلبات الشخصية للباشا او لآله تجعل المنافس الذي تسانده الحكومة المحلية يخول بان يضع نفسه على رأس ما يشاء من الفرسان الذين يوسعه جمعهم وان يعيش سلباً ونهباً في اراضي العشيرة . وهو تخويل يستعمله هذا الطامع في المشيخة لاختطاف قطعان المواشي ولتجريد القوافل من اموالها في اي بقعة يستطيع النفوذ اليها ، وكل ذلك في سبيل توفير الوسائل التي تمكنه من الاستحواذ على الرئاسة المرتقبة والسيطرة على مؤيديه بارشائهم بالاموال . اما النتيجة الثانية فهي ان العشائر العربية التي لايمحى من ذاكرة ابائها اي تقليد من

تقاليدها التاريخية — لانهم قد اعتادوا على ان يحكموا من قبل رجال على
درجة رفيعة من حسن الخلق — يفقدون كل حرمة واعتبار للحكومة
المحلية » . (٩)

وهكذا نشهد أي وسائل خسيصة كان يلجأ اليها الولاة في سبيل ابقاء
العشائر تحت طاعة السلطان . كما نرى الآثار المحزنة على هذه الدرجة من
الانحطاط والاسفاف . ولكن ينبغي علينا ان نعترف بأن جشعهم قد حرّمهم
من وسائل اخرى للعمل . ذلك لان جنودهم اللذين كانوا لا يتقاضون
رواتبهم إلا بشق الانفس وخلال مدد متباعدة لم يكونوا ليظهروا أي اندفاع
في قمع الثورات ، وكان حظهم في الحقيقة حظاً تعيساً بئساً . واليكم ماكتبه
بهذا الشأن مسيو سيوفى معتمدنا في الموصل في عام ١٨٨٠ فصور الحالة اروع
تصوير . قال : « لقد اراد نائب ضابط كان قد انهى مدة الخدمة العسكرية
منذ شهرين تقريباً ان يعود الى احضان أهله وحيطان بيته . ولكن لم يكن
ادبه المال اللازم لانفاقه على رحلته الى مسقط رأسه . ومع ذلك فقد كانت
الجزينة مدينة له برواتب اربعين شهراً . وهي الأشهر التي لم يستطع
الحصول على مبالغها . ولم يفلح في حمل السلطة على دفع مرتب شهر واحد
فقط له الا بعد توسلات كثيرة ، فاستبد به الهياج وتملكه اليأس وتحطم
قلبه ومضى في طريقه الى اسرته مثقلاً بكل هذه الاحاسيس المؤلمة . وكانت
سفرة مشحونة بالتعاسة والشقاء نظراً لضالة موارد السفر . وبينما كان يعاني
ما يعاني من اوجاع علم في احد الايام بأن عصابة من الشقاة الاكراد قد
خيمت في تلك الاطراف . فتوجه الى الجهة التي احتلتها العصابة وبادر
صوب رئيس الشقاة عارضاً عليه الحالة المزرية التي وضعت فيها الحكومة

المحلية التي نهض باعباء خدمتها فترة طويلة من الزمن . ورجاه بأن يمد يد المعونة اليه . فسأله رئيس العصاة عن المبالغ التي ربحها من خدمته للأتراك . فأجاب نائب الضابط قائلاً : « تقاضيت منها مبلغاً قدره كذا كل شهر واربعة امتار من قماش في كل ستة اكسو به جسدي » . فحسب حساب ما يستحقه نائب الضابط من رواتب حساباً دقيقاً ودفعت رواتب الاربعين شهراً الى هذا المحارب القديم . أما عن القماش فان رئيس الشقاة صرح للنائب الضابط بأنه لا يملك متراً يستعمله في ذرع القماش ولكنه سيستعمل الرمح بدل المتر . . ولا شك ان النائب الضابط الملتمس قد ربح من اتخاذ هذا المقياس الطول الجديد نظراً لانه على الاقل قد ضاعف اربع مرات كمية القماش المطلوب » . (١٠)

وها اتنا ندرك من قراءة هذه القصة ان المهنة العسكرية لم تكن ذات جاذبية عظيمة لنفوس الشبان اليافعين الذين كانوا يجاهدون بكل ما لديهم من طاقة للانفلات من شباكها . وقد سن قانون فرض الخدمة الاجبارية عام ١٨٨٨ ولكنه لم يشمل البدو فازداد فرح الاطباء وضباط التجنيد الذين كانوا يبيعون بأسعار فاحشة قرارات الاعفاء من الجندرية . وبالإضافة الى ذلك فقد كان لفرض التجنيد الاجباري نتائج غير متوقعة يروي لنا اخبارها قنصلنا في بغداد مسيو پونيون فيقول : « إن تطبيق القانون الجديد قد أحدث حتى في بغداد نفسها تأثيراً قوياً في اوساط اللصوص وقطاع الطرق . فان اعراب بلاد ما بين النهرين يتزوجون بصورة عامه في سن مبكرة جداً وان جميع الذين يدعون الى الخدمة العسكرية يكونون قد اصبحوا ارباب عوائل ، ولما كانت تغذيتهم سيئة ، بالإضافة الى انهم لا يتقاضون بصورة عامة أي مرتب كان

(١٠) الرسالة المؤرخة في ١٦ تموز ١٨٨٠

فهم عاجزون عن اعالة عوائلهم . لهذا كانوا بهربون اثناء الليل من الثكنات العسكرية ليهاجموا ويسلبوا السابلة . وكل اعمال القتل التي وقعت في هذه الايام الاخيرة كان معظم مرتكبيها من بين هؤلاء المجندن لخدمة العلم . اما السلطة فلم تواجه هذه الظاهرة بأي اجراء حازم اهمالاً منها أو لعجزها عن العمل : فاتصلت حلقات الجرائم فاصبح من الخطر الخروج الى الطرق بعد غروب الشمس دون ان يكون المرأ مسلحاً ولو كانت هذه الطرق من اكثر المسالك التي يجتازها سكان المدينة ذهاباً واياباً (١١)

ولم يكن الضباط ليعاملوا معاملة أفضل . فكانوا في احايين كثيرة يدفعون من جيوبهم رواتب جنودهم تجنباً للقلقل الخطيرة التي قد يثيرها تأخر دفع الرواتب لهم . ولكنهم لم يكونوا ليلدغوا من جحر مرتين . فان قتلنا في بغداد يفسر لنا على سبيل المثال احدى وقائع عام ١٨٨٨ حين وجدت السلطات نفسها واقعة في مأزق حرج اذ توجب عليها قمع عصيان انطلقت شرارته قرب كركوك . فيكتب القنصل ما يلي : « كان المفروض ان تعهد قيادة الحملة الى محمد باشا . ولكن محمد باشا الذي وجد نفسه مرغماً اثناء حملة العام الماضي على تسليف الدولة ثمانمائة ليرة ذهبية لنفقات عساكر هذه الحملة لم يستطع حتى هذه اللحظة استيفاء المبالغ التي صرفها . فأعلن انه مريض وافهم من حوله انه لن يبل من مرضه الا بعد ان يسترجع نقوده . ولما كانت خزائن الولاية خالية خلواً تماماً ولم تكن السلطة العليا معتادة على تسديد ديونها فان محمد علي قد واصل مرضه . وكانت هذه الواقعة بالاضافة الى صعوبة توفير المال اللازم السبب في تأخير رحيل القوات المسلحة لتأدية واجبها » .

(١١) الرسالة المؤرخة في ٢٩ شباط ١٨٦٨ .

وعلاوة على ذلك فان الحملات التي كانت ترسل لقمع ثورات العشائر البدوية لم تكن تعود بأي جدوى : اما علة هذا الاخفاق فهي كامتة في ثنايا رسالة واردة من قنصلنا في الموصل عام ١٨٥٤ الا وهو مسيو پلاس (١٢) حين يحدثنا عن غارة شنها الاعراب البداة على ارباض هذه المدينة فيقول : « في اثناء هذه الحوادث فقط استطعت ان أقدر قيمة القوات العثمانية ضد عدو ليس له من قوة ومن حول وطول الا بعض الخفة والنشاط . ففي حين كانت المسألة هي مسألة ارسال بعض الفرسان لمداهمة هؤلاء الاعراب — وهم منهمكون بأعمال السلب والنهب والغنائم وقد اشغلتهم هذه عن كل ما سواها — فان القوات العثمانية قد اضاعت وقتاً ثميناً في اعمال الاستعداد والتهيؤ للحملة . اذ قد ضيعت في هذه الاعمال يومين كاملين . وعندما تحركت هذه القوات كان يتبعها من بغال الحمل حاملة حقائب الامتعة والاقوات أكثر بما لديها من الحيات المركوبة . وذلك لان الباشوات يلزمهم في كل مكان وحتى في اوقات الحروب من مواكب الخدم والحشم وأجهزتهم ومن البسط والسجاجيد ومن السرر والمنامات ومن الاغطية الشيء الكثير . وكذلك الحالة هي هي لدى الضباط . وحتى الجنود تلزمهم أشياء كثيرة دون احتساب الغلايين والاجهزة الخاصة بطبخ القهوة . لذلك كله اضاعت هذه الحملة الثقيلة منذ البداية كل اثار الاعراب الذين كانوا قد ابعدوا عن الحملة مسافة تقدر بمسيرة يومين . وبدلاً من ارسال قوة استطلاعية في كل الاتجاهات لمعرفة أي اتجاه سلكه هؤلاء النهابون فافتوا من نيران الحملة فان العساكر قد تقدموا كما اتفق في دروب الصحراء مقتفين خطى القوافل . فتوقفت الحملة عن المسير بعد يومين من الزحف . وداهم المطر هذه القوة فتوقفت

(١٢) راجع هامش ٤-ب ص(١١) من هذا الكتاب . (س١٠)

عن متابعة تعقيباتها « (١٣)

وزيادة في احداث القلاقل والاضطرابات والقتن كان يحدث في احايين كثيرة ان يحرض والي احد الاقاليم عشائره على الاغارة على عشائر الاقليم المجاور لغيره هذا الوالي الاخر . وهذا ما وقع في عام ١٨٥٤ لوالي الموصل الذي نهب اقليمه من قبل بدو دفعوا الى هذا العمل بتحريض من زميلي والي الموصل وهما والي بغداد ، ووالي كركوك . فكتب قنصلنا بهذا الصدد يقول : « لقد علمت علم اليقين ان حصيلة اعمال السلب والنهب قد تقاسمها السلابون والنهابون ونائب والي اربيل (وهي اربيل الاسكندر المقدوني الاكبر) . . اما الحيوانات المسروقة فقد بيعت على ملاء الاشهاد في سوق هذه المدينة تحت اشراف نائب الوالي الذي ما كان يسمح بامثال هذه الفضيحة لو لم يكن مخولاً بارتكابها من قبل رئيسه المباشر وهو والي كركوك » .

القسم السادس

علاقات قناصلنا بالموظفين المحليين

من السهولة بمكان ان تصور مهمة قناصلنا التي كانت في بعض الاحيان غارقة في الصعوبات من جراء التعامل مع موظفين متعصبين تباع ضمائرهم في اسواق النخاسة . او هم باسبغ عبارة غير اكفاء بل عاجزون عن اداء مهماتهم اداءً صحيحاً سليماً . وزاد الامور تعقيداً على تعقيد ان نظام الامتيازات الذي كانت بنوده نافذة المفعول في تلك الحقبة كان يعترف لهم بنوع من انواع حق الاشراف على الادارة بالاضافة الى حماية رعايا السلطان الكاثوليك . وهذا الضرب من ضروب الرصاية الذي كان يمارس احيانا بصورة تعوزها الحنكة والكياسة كان يغيظ عدداً كبيراً من المسلمين . اما حاشية السلطان نفسه فلم تكن لتقبله الا مرغمة وعلى مضض . ولهذا نرى قناصلنا يتوجهون بشكاواهم التي لا ينقطع سيلها الى السفارة الفرنسية في القسطنطينية مستنديين في دعاواهم هذه الى القانون . في حين ان هذه الادعاءات تبدو لنا احيانا مجانية للتعقل مغالية مبالغة بالنسبة للحوادث التي تدفعها الى هذه الشكاوي . اما السفارة فيبدو انها كانت قليلة الاهتمام باستعمال الثقة التي تتمتع بها والنفوذ الذي تملكه لمواجهة الباب العالي بشأن مشاجرات ومشادات تقع على مسافات بعيدة منها مع اشخاص لا تؤهلهم رتبهم للعناية بمشاكلهم كثيراً .

ولهذا كله كانت هذه الشكاوي في معظم الاحيان تافهة لا معنى لها في نظر السفارة الفرنسية في القسطنطينية . ولكن السفارة لا تتقف عند هذا الحد فهي تؤنب القنصل وتهنئه في الوقت نفسه على عدم اغفاله المطالبة بتطبيق

اتفاقية الامتيازات وما تمنحه من حقوق للفرنسيين والمشمولين بحماية الفرنسيين
وتشير عليه كذلك بالتحمل بالصبر والتحلي بالاعتدال .

ولكن حين تتفاقم القضية او يطول امرها (فبعض القضايا تدوم بضع
سنوات) فان السفارة تتوجه الى وزارة الخارجية التي تتطلب حينئذ توضيحات
من جانب القنصل موضوع المشكلة فيجيب هذا جوابا يرضيه او لا يرضيه
ويقنع الوزير او لا يقنعه .

وكان منشأ هذه المنازعات بين الولاة والقناصل هو المشادات التي تقع
في اغلب الاحوال حول حقوق التقدم والصدارة . وقد ذكرت قبل هذا
تحسسات بعض معتمدنا المفرطة . تلك التحسسات التي لا يسعني إلا الاعتراف
بمشروعيتها والتي يلعب فيها (ماء الوجه) أخطر الادوار .

ولهذا السبب بالذات تمنع قنصلنا العام في بغداد عام ١٨٤٠ وهو مسيو
دى فيمار مدى اربع سنوات عن اقامة علاقات رسمية مع الوالي لان هذا
الوالي لدى وصوله الى بغداد كان قد زار اول من زار المقيم البريطاني وهو
في وظيفته اقدم من زميله الفرنسي في منصبه . في حين ان القنصل الفرنسي
كان يزعم ان اتفاقية الامتيازات تخوله الشياخة والرئاسة ، فلم تدعم السفارة
موقفه الا بليونة ورخاوة . ومع ذلك استطاعت حمل الباب العالي على توجيه
رسالة طافحة بالتبوييحات والتقريعات الى الوالي الذي لم يقم لهذه الرسالة
اي وزن .

فراجع القنصل العام وزارة الخارجية الفرنسية . فاشارت عليه كما هي
عادتها بالتسامح والتصالح . واستطاع قنصلنا العام ان يكتب اخيراً الى رئيسه
بلهجة المنتصر الرسالة التالية : « لقد تعمقت كل التعمق في الآراء التي
شرفني معاليكم فشرحها اجمل شرح . فلم انقطع منذ وصول توجيهاتكم الى

عن بذل كل جهودي لاستئناف العلاقات الحسنة مع الباشا دون نسيان التمسك بمراعاة كرامة المسؤوليات التي اتقلدها . هذه العلاقات التي طعنها الباشا في الصميم من جراء خرقه لحقوق التقدم والصدارة واعتدائه على حقوق المرتبة العليا والقدم . تلك الحقوق التي داس عليها الباشا بقدميه منذ ان وطئت تراب بغداد . واني معتبط كل الاغتباط بحمل هذه البشري الى معاليكم . وهي ان الباشا بعد مفاوضات طويلة خيري بين قيامه بزيارة رسمية للقنصلية العامة بصفة رتق ما انتفق وبين رسالة اعتذار فوافقت مؤبداً من قبل سفيرنا على الاقتراح الاخير » . (١)

ولكن هذا الوفاق اللطيف بين الرجلين لم يدم إلا قليلاً . فقد شكوا الباشا الى السلطان تصرفات القنصل العام السيئة تجاهه . فرفعت السفارة الشكوى الى وزير الخارجية الذي انفعل بدوره من هذه الحالة . فكتب في عام ١٨٤٥ الى القنصل العام يقول : « سأتأسف كل التأسف لو صحت الوقائع التي نسبت اليك . لانك بتصرفاتك هذه ستكون قد تخطيت حدود صلاحياتك وتجاوزت طورك . ولا يسعني إلا ان ادعوك الى سلوك جادة الصواب في المستقبل . . . واني سأكون اول من يعنفك على التفريط باعتبارات تتعلق بحقوقك او بكرامة الوظيفة التي تشغلها . ولكنني من الجهة الاخرى اراني مرغماً على ايصائك بأن تتجنب بكل حذر واحتراس كل ما من شأنه ان يعقد ويكدر علاقاتك مع السلطة الرئيسية في الاقليم الذي تقيم فيه دون ضرورة ملحة » . (٢)

فأجاب قنصلنا العام عن هذا الاتهام بالرسالة الطنانة التالية : « ارجو من معاليكم ان تسمحوا لي قبل كل شيء بشكركم شكراً مشفوعاً بالاكابر

(١) الرسالة المؤرخة في ١٠ تموز ١٨٤٤ .

(٢) الرسالة المؤرخة في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٥ .

والاحترام على تفضلكم بالسماح لي بالاجابة على التهم الموجهة الي : واني
مغتبط يا سيادة الوزير ، بأن أرى في مقدوري أن اضع بين يدي تقدركم
السامي وقائع سبق لي عرضها على انظار سيادة سفير الملك في القسطنطينية
ولكنني كنت قدرت عدم وجوب تكدير صفاء مزاج معاليكم بها . في حين
ان شعور الاحترام العميق الذي اكنه لاقوات معاليكم قد اعاقني عن عرض
كل المتاعب ، التي اعانيها منذ ثلاث سنوات ، على انظاركم . . . وكل هذه
المتاعب اكابدها في سبيل رعاية مصالحنا والحفاظ على اعتبارنا في هذا القطر
ضد غوائل والي بغداد الحالي . وان احساسي بواجباتي قد اضطرني على
العكس من ذلك الى ان ادلى بكل ما في القضية من تفصيلات ودقائق الى
مثل جلالته في القسطنطينية . . . فحسبي اذن . يا سيادة الوزير ، اطاعة
للاوامر التي اصدرتموها الي وتبديداً مؤملاً للشكوك التي تساوركم نحوي من
جراء الشكاوى الملفقة التي دبرها والي بغداد وعساها لا سمح الله ان تكون
قد فعلت مفعولها في ذهن معاليكم عن قاعدة السلوك التي اختطتها انفسني
في ادارة قنصليتي العامة — حسبي يا صاحب المعالي ، ان اضع تحت
انظاركم مراسلاتي مع السيد سفير الملك في القسطنطينية التي تتضمن مختلف
الوقائع » . (٣)

وقد اضاف مواطننا الى برقيته عدداً من رسائله الموجهة الى سفارتنا
التي اختار من بينها هذه الرسالة التالية وهي تثبت ان المصالحة التي وقعت
في السنة السابقة لم تغير في الواقع شيئاً من حالة الاشياء السالفة . واليكم
هذه الرسالة : « في اليوم الثالث من شهر تشرين الاول المصادف لليوم
الاول من عيد الفطر المبارك تلقى الباشا زيارة قصص انكلترا التقليدية

المعهودة في مثل هذه المناسبة . وقد حدثت الزيارة فور افتتاح السراي نتيجة تواطؤ مسبق بين الاثنين . وهذا الاجراء الذي وقع باتفاق الاثنين منذ الليلة السابقة جعل من المتعذر علي ممارسة حق استقبالي في هذه الزيارة بوصفي عميد السلك القنصلي في بغداد قبل استقبال السيد قنصل انكلترا الذي كما يبدو لا يريد من الآن فصاعداً الاعتراف بحق القدم الذي نص عليه مؤتمر (فينا) ، كما ان الباشا لم يعترف بحقوق التقدم والصدارة التي منحتنا اياها اتفاقية الامتيازات . ولهذا اقتصرت على ارسال مستشار القنصلية العامة ليقوم بمراسيم تهنئة الباشا « (٤) .

ومن هنا نشأ هيجان الوالي الذي اثار تظلمات جديدة عزا اسبابها الى ممثلنا الذي اجابه بلهجة حازمة حادة قائلاً : « لا صحة بالمرّة لما تزعمونه رفعتكم من القول حول هذا الموضوع من ان علم القنصلية لا يرتفع لدى مرور (قايعغ) * زورق عزتكم الذي ترفرف عليه الراية العثمانية وهو يتهادى في نهر دجلة امام دار القنصلية الفرنسية . لانني على الدوام كنت بنفسى آمر برفع العلم امامي لافوق القنصلية الفرنسية فحسب وانما كذلك فوق (قايعغى) زورقي نفسه . وهناك مائتا رجل بوسعهم الادلاء بشهاداتهم لتأييد مدعاى هذا . واخيراً فان مقامكم لم يستطع الكتابة بصورة جدية رغم انه سجل ذلك في رسالته من ان المستشار وهو الضابط الاول في هذه القنصلية العامة بعد القنصل العام ليس هو في مرتبة تؤهله للقيام بمراسيم تهنئة ولايتكم . وذلك لانه ان لم يكن اهلاً لتهنئة سدتكم فماذا علي ان افترض تفسيراً لمقاصد جنابكم بهذا الشأن في ارسالكم شرطياً ليس له حق الجلوس امام رؤسائه الاعلين ؟ اننى ليؤسفني كل الاسف ان اراني مضطراً الى فضح

(٤) الرسالة المودخة في ١٥ تشرين الاول ١٨٤٥ .

(*) قايعغ كلمة تركية بمعنى زورق . وقد استخدمها الموءلف في كتاباته .

جملة من الادعاءات غير الصحيحة التي وردت كلها في رسالة واحدة من رسائل حضرتكم وان اقول ان هذه الاخطاء التي من السهولة بمكان على معاليكم تجنبها قد تركت لدي القليل من الامل في رؤىة تصرفات تصدر من جانب معاليكم منسجمة والمشاعر التي تقوى الروابط بين حكومتينا الساميتين (كذا) ولا يسعني الا اعلام سفارة الملك عن قلة الاستعداد التي يظهرها معاليكم في معاملة القنصلية العامة للملك معاملة تليق باستحقاقها .

ومن قراءة هذه الرسالة نستطيع ان نفهم لماذا بدت مشادات الزيارات والرايات تافهة كل التافهة امام مسيو (كيزو) الذي كان يدير حينئذ سياستنا الخارجية — فلم يشأ ان يجر على نفسه صعوبات في القسطنطينية في سبيل تهدئة مشاعر مثلنا في بغداد . وعلى ذلك فقد تفاقمت المشاكل الى ان بلغت في عام ١٨٤٦ ذروتها حين اقتحم جنود مدججون بالسلاح دار القنصلية الفرنسية ورفض الوالي معاقبتهم فاستحق مواجهته بالرسالة التالية : (مادتم معاليكم تصرون على رفض تأدية التعويضات المشروعة التي طلبتها منكم الي ، وبناء على تشجيعكم جنودكم هكذا على خرق حرمة محل اقامة القنصل العام وفي الوقت نفسه ردكم طلبي باعطائي الفرامين وقوات الحراسة الضرورية للخروج من هذه الولاية (الباشلق) حيث لم تعد داراً آمنة لمعتمدي جلالة ملك الفرنسيين ، لذلك لم يعد بوسعي إلا التوجه الى الحكومة العثمانية صاحبة ارفع مقام في الدنيا بهذا الخصوص طالباً التعويضات اللازمة عن هذه الالهانات الفاحشة . وابتظار تلبية طلباتي ارى وجودي من جراء تصرفات معاليكم غير قادر على القيام باداء المهمات المنوطة بي من قبل جلالة ملك الفرنسيين ولهذا سيكون نشاطي مقصوراً قدر الامكان على رعاية مصالح ابناء جلدتي . ولكن يجب علي ان اعلن لمعاليكم بانني منذ الآن ساقطع كل علاقة بمعاليكم

او بموظفيكم سوى العلاقات الضرورية لحفظ مصالحنا »

وقد قص قصلنا قصة هذه التصرفات على السفارة واعتذر عنها بهذه العبارات : « سيكون من دواعي بهجتي واعتباطي لو استطعت اقناع معاليكم بانني حاولت كل المحاولات السرية والعلنية لتبديل نزعات التشاحن والتهاثر الكافئة في نفس الوالي وفي نفوس اولاده . واذا كان اي طريق آخر سوى طريق الحزم المتواصل لم يعد مفتوحاً للدفاع عن حقوقنا التي كانت تهاجم في كل يوم بجرأة لا يمكن تفسيرها الا بأمل اسناد رفيع في القسطنطينية فاني اكون قد اتبعت هذا الطريق بغطاة وتعجل . واني اتجاسر فأعمل من معاليكم تأييدي في موقعي هذا . وانكم لوراجعتم السنين الثلاث الاخيرة لتذكرتم معاليكم كم كانت اعمال المقاومة مصحوبة بالصبر الذي املته علي كرامة الاسم الفرنسي » (٥)

ولكن الوالي هذه المرة كان قد تعدى طوره فاوغل في الاساءة ولم تستطع السفارة الآن ان تتجاهل الصفعة التي صفع بها ممثلها ، فتدخلت بشدة وحزم لدى الباب العالي وارغم هذا الباب ارغاماً على توجيه توبيخ صارم الى الوالي . ذلك لان تصرفاته قد قلبت الامور راساً على عقب . وانتظر قصلنا عدة اسابيع قبل ان يزف هذا الحل السعيد الى باريس . هذا الحل الذي غمر قلبه بالبهجة والحبور فكتب حينئذ يقول : « لقد كان من دواعي اغتباطي ان ارى والي بغداد يتخلى عن محاولاته في حمل حكومة الملك والحكومة العثمانية على قبول الاتهامات التي بمعونتها كان يبحث عن وسيلة لتبرير الاعمال السيئة العنيدة التي قام بها تجاه ممثلينا الفرنسيين في دمشق . فعتد العزم على سلوك طريق اكثر نظامية واكثر ملاءمة للعلاقات القائمة بين

(٥) الرسالة الموعرحة في ١٧ كانون الثاني ١٨٤٦ .

الدولتين . ومع ذلك وبالرغم من ارتياحي الشديد من انتصاري على سخافاته المتأصلة في نفسه بعد صراع طويل أليم ، ومع حرصي على المبادرة التي تناسب كرامة ممثل الملك الفرنسي في مجارة التصرفات المرضية التي عبر لي عنها الوالي فاني قد تعمدت التريث قليلاً خشية عودة الوالي الى عادته القديمة وخوفاً من حدوث عقبات لها تأثيرات معاكسة فاجلت تبشير معاليكم بالتبديل الذي طرأ على علاقتنا . اما اليوم بعد ان حصلت تقاربات متواصلة خلال ثلاثة اشهر وتوطدت علاقتنا وتحسنت يوماً بعد يوم فاصبح في مقدوري ان اؤدي الى الوالي عدة خدمات يبدو انه يعترف بجميلها فاني من الوثوق بالنفس في درجة تسمح لي ان اعلم معاليكم بأن علاقتي معه الآن هي على احسن ما يرام . وهكذا يحق لي ان اهنيء نفسي على هذه النتيجة التي اقتضت ثلاث سنوات من المشاق المضنية ولاشك ولكنها مع ذلك توجت بصيانة كرامة حكومة الملك صيانة تامة تبعث على الفخر والاعتزاز والتي كان من ثمراتها جعل احد كبار الموظفين العثمانيين يتحسس بتحسسات مختلفة تجاه المصالح الفرنسية التي كان من ألد اعدائها » (٦) .

والواقع ان الوالي قد اعترف بحق التقدم والصدارة لقنصلنا واقام حفلة استقبال على شرفه ختم مصالحتهما بها . ومنذ اقامة هذه الحفلة لم يقع اي شقاق بين الرجلين طوال ايام الستين اللتين قضياها معاً في بغداد . وقد دلتنا اخيراً على صواب رأيه في عناده واصرارته على وجود سوء نية لدى خصمه . ومهما بدت فكرة العزة القومية مضحكة لاذهان المواطنين الاوربيين فاننا لانستطيع ان نحول دون الاعجاب بالشعور الذي كان يخالج حينئذ معتمدنا بوصفهم مواطني دولة عظمى . كما لايسعنا الا تقدير المتاعب

التي كانوا يتحشمونها في فرض احترام هذه الدواة حتى في اهون الامور .
ولكن لم يكن الجميع يخرجون راضين مطمئنين من منازعاتهم مع
السلطات المحلية . فان احد قناصلنا قد ذاق مرارة هذه التجربة بعد بضع
سنوات . فما ان وصل هذا القنصل الى بغداد في عام ١٨٦٦ حتى دخل في
مشادات سريعة مع الوالي الذي رفض ان يؤدي له مراسيم الحفاوة التي كان
يؤديها لزميله البريطاني . وقد اخبر هذا القنصل وزير الخارجية بانه لن
يتحمل هذه الالهانة برضا وطواعية . فكتب اليه يقول : « كنت رجوت
السفارة ان تتفضل فتعمل على اصدار الاوامر المشددة الى بغداد بالكف
عن التيام بمثل هذه الاعمال التي تقابل بها وذلك باقصى سرعة مستطاعة .
وباتظار هذه الاوامر ارى نفسي مرغما مع الاسف الشديد ان ابادل الوالي
وقاحة بوقاحة وصفاقة بصفاقة » . فقلق الوزير بعض القلق تجاه هذا التهور
ودعا القنصل الى « استعمال الحزم عند الاقتضاء تجاه الوالي على شريطة
التمسك باحترام الاعتبارات والمواضعات المرعية قدر المستطاع فان هذه هي
الحكمة بعينها » .

وقد فعل هذا التسيه فعله في نفس قنصلنا فلاذ بالهدوء والسكينة بضعة
اشهر . ولكن في شهر مايس من عام ١٨٦٨ حدثت له مشاحنة مشهودة مع
قاضي المسلمين كانت عقباها طلب الوالي العثماني استدعاه . فطلب الوزير
من القنصل بعض الايضاحات فقص عليه قصة المشهد كما يلي : « لقد قمت
يوم عيد ميلاد جلالة السلطان بزيارة رسمية للوالي مرتدياً الحلة الرسمية كما
تقضي بذلك العادة (موقع الرسالة هو الذي يؤكد هذا) . . ولدى خروجي
من داره عرجت على دار قائد القوات العسكرية . فاستقبلني الجنرال لدى
باب الصالون استقبلاً في غاية اللطافة والحلاوة كما هو المعتاد . ، ولدى

دلوفى الى هذه الغرفة وقع نظري على القاضي وقد جلس القرفصاء بوقاحة
وقلة حياء وتجاهل وجودى ولم يتزحزح من مكانه فينهض لتحتي لدى دخول
كما فعل الآخرون . فدنوت منه بخطى قصيرة دون ان يجتاحنى الغضب وبهدوء
تام . وبعد ان حدجته بنظراتي ببرودة مدى لحظة التقت خلالها عيناى بعينه
امسكت بلحيته برقة ولطف واستجوبته بهذه الكلمات : « عجباً . أما يرى هذا
الرجل قنصل الامبراطور نابليون ؟ » . فظهر العجب والدهشة على وجه القاضي .
ولكنه ظل جالساً على مقعده . حينئذ اضفت هذه الكلمات وانا باق على
هدوئي ، ولكنني لم المس لحيته هذه المرة : « ان هذا الرجل يتبجح بانه لم
ينهض لتحية رجل مسيحي . . على رسله . . ولكن بوعه بعد الان ان
يقول ان رجلاً مسيحياً هز لحيته عندما كان قاضياً لبغداد . فامتعض الجنرال
كل الامتعاض من سلوك القاضي وتوسل الي ان اجلس . فصمدت امام
توسلاته . لان القاضي لم يبد عليه انه يريد التنازل عن موقفه فينهض احتراماً
لي ولا ان يغادر القاعة . لذلك امتطيت جوادي من فوري عانداً مع ضباطي
الى دار القنصلية » . وعلى سبيل الاعتذار عما عسى ان يحمله تصرفه هذا
من اهانة كتب قنصلنا هذه السطور الاستفزازية : « ان هذا الشخص منذ
وصوله الى بغداد يتباهى على ملاً الاشهاد بانه لم ولن ينهض ابدأ من مقعده
تحية لرجل مسيحي بالغاً ما بلغت درجة هذا الرجل المسيحي من الرفعة
والوجاهة . ولذلك فقد تعمد الوقاحة التي مثلها امامي مع سبق الاصرار ،
لان هذا ما علمناه علم اليقين منذ عهد قريب . وقد اراد ان يرى الجمهور
رأى العين تعلقه بجبل الدين الحنيف فدبر توقيت هذه المقابلة معي على ان
تقع في يوم من ايام الاحتفالات . ليظهر في ظرف رسمي احتقاره للمسيحيين
حتى ولو كان ذلك تجاه البزة الرسمية التي تحمل رسم الامبراطور منقوشاً

(هكذا كانت تسمى نقشة اللجيون، دونير) وقد جاء هذا المتعصب يحمل بين جنبيه هذه النية البلهاء منتظراً قدومي الى صالون قائد القوات العسكرية حيث لم اكن اتوقع ان اصادفه قط « (٧)

ولكن يبدو ان الفضيحة كانت اعظم واخطر مما رواها القنصل ، ذلك لان بعض اليهود اكدوا ان قنصلنا لم يمس لحية القاضي مساً لطيفاً رقيقاً وانما امسك بمعصميه بشدة وعنف ليرغمه هكذا على النهوض . فقطع الوالي كل علاقاته معه واستدعته باريس . ولعل هذه الحادثة تبرر تفكير سكرتير وال آخر كان قد قال عن سيده بأنه : « في نظر الديوان احسن باشا من باشوات الامبراطورية ، ذلك لانه كان احد اولئك الذين تتهاطل ضد تصرفاتهم الشكاوى والاحتجاجات كتهاطل الامطار من قبل القناصل الاجانب » .

ولكن لحسن الحظ لم يكن الولاية جميعهم يستحقون ثناء كهذا من جانب رؤسائهم : فان مسيو تافرنيه الذي ارسل الى بغداد في عام ١٨٥٠ من قبل الجمهورية الثانية بعد شغور وظيفة القنصلية مدة دامت قرابة ثلاث سنوات فوجيء على العكس من ذلك مفاجأة حلوة الطعم بالاستقبال الرائع الذي توبل به ولم يكن متوقفاً له . فكتب يقول : « لقد استقبلت من قبل السلطات اجمل استقبال وادعاه للثناء والامتنان . اما العواطف التي ابدتها كافة طبقات السكان تجاه فرنسا فكانت اجمل واروع . فقد ارسل الاتراك انفسهم واليهود والاييرانيون رؤساءهم للاعراب عن سرورهم بمقدمي السعيد مؤكدين لي الشعور بالعبطة الذي غمر سكان المدينة بوصول ممثل فرنسا اليها . وقد تحتم علي ملازمة الدار خلال ثلاثة ايام متتالية لاستقبال هذه الزيارات الكثيرة . وبقيتي ان سكان هذه البلاد قد شرعوا يدركون اننا لا نؤمل لهذه

(٧) الرسالة الموهوخة في ١٠ ايلول ١٨٦٨ .

الاصقاع سوى راحة السكان ورفاهية القطر ولا شيء مما وراء ذلك . ولا
استطيع ان اعبر بصورة اخرى عن هذه الظاهرة العفوية لأهالي بغداد
تجاهها . ولن اتوانى عن بذل كل ما في طوقى لآكون عند حسن ظن
مشاعرهم الودودة . وقد نسيت ان أخبرك ياسيادة الوزير بأن الوالي قد هيا
لي نفس المسكن الذي كان قد وضعه تحت تصرف المندوب الروسي الذي
حل هذه البلاد لحل مشكلة تعيين حدود الممتلكات التركية الابرانية . وهو
مسكن لم ينل رضاي ولكن تأدباً من جهة ، وسياسة من جهة أخرى ، رأيت
ان الواجب يضي علي ان امضي إليه واصي فيه ولو ساعة واحدة . ولم اشأ
ان ادع المفترضين يفترضون بانني استغللت عرض الوالي هذا لأظل خلال بعض
الوقت عبثاً على عاتق الحكومة . ومن جهة اخرى حرصت على ان يعلم سكان
المدينة اهتمام السلطات البالغ باستقبالي . وقد غالى الوالي في المجاملة واللطافة
والاريجية حتى لقد ارسل الي جواده الخاصة لذهابي الى قصر الولاية يوم
تقديم فرماني . وقد رد علي زيارتي هذه بعد اربعة أيام فزارني بشخصه
مصحوباً بالقائد العسكري » .

وبعد ذلك بسنوات ثلاث اثار وصول ول جديد بصورة مجددة قضية
الزيارات البروتوكولية للممثلين الاجانب . ولكن هذه المرة وجد كل شيء
مبسطاً لان معتمدنا لم يكن يحمل الا عنوان نائب قنصل في حين ان زميله
البريطاني كان قنصلاً . ولكن في هذا الظرف اظهر الوالي كل ما هو عليه
من لطف ورقة هذا اعطاف مواطننا فكتب يقول : « ان الوالي الجديد قد
جاء بشخصه لزيارتي وقد هرع القنصل الانكليزي إليه بزيارة رسمية في يوم
وصوله وفي لحظة دخول الوالي الى قصره . وقد تصرت نفسي على ارسال
ترجماني لتهنئته وتقديم خدمات القنصلية إليه واعلانه بعزمي على زيارته فور

استجمامه من متاعب السفر . واظن انه من غير المناسب ان تتم هذه الزيارة الرسمية قبل ان يكون الباشا قد استنار فكره بعد قراءة فرماناته والقيام بالشكليات الاخرى المعتادة لدى تسلم الولاة مهام مناصبهم . ولهذا خففت الى زيارته بعد وصوله بثلاثة ايام . . اما رد زيارات ممثلي الدول الاجنبية فبوسع الباشا ان يتبع نظام تواريخ الزيارات التي تلقاها منهم ، ومعنى ذلك ان يبدأ الباشا بزيارة القنصل الانكليزي قبل كل احد ثم يجرى لزيارة قنصلية فرنسا بعد هذا التاريخ بستة او ثمانية او عشرة ايام ، ولكنه لم يسلك هذه الطريقة اذ زار القنصل الفرنسي والقنصل الايراني في يوم واحد . ولكن لما كان عليه ان يمر بالقنصلية الفرنسية اثناء ذهابه لزيارة القنصلية الانكليزية وان باب قنصلية فرنسا يؤدي الى السوق فانه حجباً لنفسه عن عين الجماهير اثناء عودته قرر زيارة القنصلية الانكليزية ركباً من دجلة ، ولدى خروجه من القنصلية الانكليزية يعرج علي » .

ما اشد عنعنات المجاملات الشرقية وما اكثر اعوجاجاتها وتعقيداتها ! (٨)
وكان بعض وكلائنا يتصرفون بعينين عما يتطلبه الشرف في تصرفات امثالهم ولكنهم يقيمون افضل العلاقات الممكنة مع الموظفين المحليين . واليكم ما يقوله مسيو (بوفيه) نائب قنصلنا في الموصل الذي يفتخر عم ١٨٥٤ بالتائج التي احرزها عن طريق هذا الاسلوب الذي قال عنه ان سلفه قد تجنب سلوكه . يقول هذا القنصل المكيافلي : « لقد وضعت فور حط رحالي في هذا القطر نظاما تحت قدمي (كذا) قوامه اثاره المشاحنات والنجوى الى الحيل والمخادعات والظهور بمظهر العجرفة والعطرسه في الوقت نفسه . وقد نجحت في هذه الطريقة . فانا الرجل البارح صاحب الادراك

(٨) الرسالة الموجهة في ٢٠ نيسان ١٨٥١ .

السليم والذوق الرفيع . وقد دعوت الى سيادة الوفاق بين القنصلية والسلطة المحلية وتوقفت الى اقامتها .

ان ما يريدُه قنصل فرنسا (وهو لا يريد الا الاعمال الصالحة الممكنة المعتدلة) قد وافقت عليه السلطة المحلية دون ملاحظة . وفي اللحظة التي املي فيها هذه السطور لو احتجت الى تعبئة مائة فارس وجعلهم يزحفون الى نهاية تخوم الاقليم لكانوا على قدم لاستعداد خلال ساعة . وهذا الامر معروف في كل مكان . كما يعرف الناس هنا بأنني قبل وقوعي مريضاً امتطيت جوادي ذات مرة لكف الاعتداءات الواقعة على المسيحيين القرويين وتعويضهم جزاء انتهاك حرمانهم ، بحيث ان الامور اخذت تجري من تلقاء نفسها وان كلمتي مسموعة حتى حين تصدر من فراش الضنى والسقام » .

وكان لا بد من تقديم بعض الهدايا الصغيرة النافعة كل النفع في سبيل ديمومة صداقات ثمينة كهذه الصداقات ففي عام ١٨٤١ توسل قنصلنا العام في بغداد الى باريس بارسال هدية الى الوالي تتضمن « سيفاً وصورة لصاحب الجلالة مرصعة بقطع من الماس وصندوقاً من الاسلحة النارية البديعة » (٩) لسيت ادى كيف استقبل الوزير هذا الطلب ولكنني افترض انه كان استقبالاً سلبياً ذلك لان قنصلنا لو حصل على مراده لما تأخر عن تصوير تفاصيل مراسيم تقديم الهدية » .

(٩) كان والى بغداد يومذاك على رضا باشا الالاز . أما قنصل فرنسا العام فكان البارون دى فيمار .

القسم السابع

حماية المواطنين الاوروبيين
والمسيحيين المحليين

لقد سبق ان اشرنا الى ان المهمة الاساسية لممثلينا في العراق كانت تنحصر من جهة في حماية مواطنينا الذين من المناسب ان نضيف اليهم رعايا الاقطار الاوروبية الذين ليس لهم هيئة قنصلية في بغداد والذين عهدوا الينا برعاية مصالحهم . ومن الجهة الاخرى في حماية رعايا الباب العالي المسيحيين . وساعد في فصل قريب للتحدث عن علاقات قناصلنا بمواطنيهم وقصاري ان اعرض هنا للوسائل التي كان يتوسل بها معتمدونا في سبيل فرض احترام حقوق اولئك المشمولين بحمايتنا .

على اننا يجب ان نعترف بان اجراءاتهم تبدو لنا في هذه الايام مذلة مهينة لكرامة السلطات المحلية ، ولاشك ان هذه الاجراءات كان لها ما يبررها من المخاطر المتنوعة الكثيرة التي كان يتعرض لها المسيحيون في دار الاسلام والتي تصير لنا نموذجاً منها قصة القلاقل والاضطرابات التي وقعت في عام ١٨٤٤ في الموصل . ولكننا ونحن نقرأ القصص التالية لا يسعنا الا ادراك الاستماتة التي كانت تعتلج في نفوس كافة حكيمات الامبراطورية العثمانية وسلطاتها في سبيل التخلص من هذه الوصاية (وصاية اتفاقية الامتيازات) . واليكم بعض الامثلة على امثال هذه الحوادث :

الحادثة الاولى وقعت في بغداد عام ١٨٤٢ وملخصها ان « اوروبيين هما السيد (أ) والسيد (ف) كانا قد سمحا لزوجتيهما ولاختي زوجتيهما بأن يتجولن في احدى الليالي في الاسواق التي تتألق انوارها وتعج بالرائحين والغادين كما هي العادة في شهر رمضان . وكان يرافق هاته النسوة امد

ابنائهن وخادم مسيحي من ابناء البلاد . ولدى خروجهن من احد الاسواق ضرب عليهن طوق من قبل خدام الباشا واخذن مسوقات الى مدير الشرطة . وبلغ الخبر اسماع السيد (ف) فهرع من فوره ووصل الى مدير الشرطة بشق الانفس . فقدم اليه هذا المدير اعتذاراته وتوسل إليه وطلب منه عدم اذاعة القضية ، مدعياً ان السوة كن مبرعات يبرقع النساء التركيات ولذلك فقد اشتبه في امرهن فحسبن نساء مسلمات في رفقة رجل مسيحي ولذلك القى القبض عليهن بلادة وبلاهة . ولكن السيد (ف) اعلن إليه انه لا بد له من اعلام تنصل فرنسا العام بهذه الواقعة لانه حاميها . وقرن القول بالفعل فجرى في الحال الى دار القنصلية الفرنسية العامة . وكان الوقت يدلف الى نصف الليل . فارسلت من فوري ترجماني الى دار اقامة الباشا طالباً منه ان تأخذ العدالة مجراها حول هذا الموضوع ، وبعد عدة اعتراضات من قبل الباشا قابلها المترجم بالتفسيد ارسل الي مدير الشرطة لأقرر انا بنفسي عقوبته . لقد جاء الى القنصلية يجر وراءه اتباعه وطلب مني الصفح والمغفرة ، فأثلته ما اراد بعد اخذ موافقة السيد (ف) ونيل رضاه . وبالرغم من ذلك ولما كانت الاهانة قد انصبت على جباه اناس اورويين فقد طلبت ان يقيد الافراد الذين اعتقلوا السيدات بالأغلال وعلى ملاء الاشهاد ، تماما كما اھين المواطنون الاوروبيون على ملاء الاشهاد والباديء أظلم . ولم أكتف بذلك بل دلبت ان يقبوعوا في احدى الزنزانات . وفي صباح اليوم التالي ضرب هؤلاء ضرباً مبرحاً امام مديرية الشرطة بحضور الترجمان . » . واختم القنصل رسالته سائلاً وزير الخارجية الا يلومه وبعاتبه على عفوه عن مدير الشرطة الذي لم يكن موقفه في هذه القضية ليستحق اى لوم او مؤاخذة .

وهناك مثال آخر يقع تاريخه في عام ١٨٥٢ : « لقد اهين مواطن يدعى (ر) اثناء اجتيازه احد الاسواق من قبل حانوتي تركي . وقد وقعت المشادة نتيجة لعبارة مشوبة بشيء من الحدة فاه بها السيد (ر) وهو يجيب بها تركيا آخر . فأخذ الحانوتي على عاتقه مهمة الدفاع عن ابن جلدته التركي لآخر ووضعه يده على السيد (ر) قائلاً له : لا يجوز اهانة احد ابناء محمد على هذه الشاكلة » . فارسلت الى الباشا اطلب إليه ان يزج في السجن هذا الحانوتي التركي موضوع المشادة : وهذا ما حدث في رابعة النهار وفي معمعان السوق . وتشفع بعض وجوه البلد لدى السيد (ر) لصالح السجن الذي ابدى استعداده للقيام بكل ضروب الاعتذارات . فرجاني السيد (ر) ان اخلى سبيل الحانوتي التركي . فأرسلت من قبلي الى الباشا رسولاً يشكره على الاهتمام الذي احاط به طلي في توقيف الرجل . واضفت الى ذلك ان هذا الطلب لم تمله علي روح الحقد وانما الرغبة فقط في جعل الحانوتي عبرة لمن اعتبر فلا يعود احد لاهانة مواطن اوروبي دون ان يناله العقاب . ومادامت الامثلة قد حصلت بفضل رفعة الباشا فاني قد رجوته ان يتفضل فيأمر باطلاق سراح الرجل المسلم . ولكن الباشا تلطف اكثر مما توقعت اذ ارسل هذا الرجل الى القنصلية حيث شكرني امام موظفي القنصلية وبحضور اولئك المشمولين بحمايتنا وامام السيد (ر) نفسه واعدأ اياى بابداء كل الاحترامات في قابل الايام للمواطنين الافرنج . فهل يوسع هـ ا الوعد المتزع بهذه الاساليب ان يكون وعداً صادقاً ؟ (١)

واننا حين نقرأ امثال هذه القصص يخيل الينا اننا عبر اصغاث احلام في حقبة قد يتعرض فيها المواطنون الاوروبيون الى اسوأ مما يتعرض له

(١) الرسالة المؤرخة في ٢٠ تشرين الاول ١٨٤٢ .

الدبلوماسيون طبعاً في هذه الاصقاع . فقد لا يهانون على ملاء الأَشهاد فحسب
وانما قد يكونون عرضة لان يزج بهم في السجون وان يمثلوا امام المحاكم
دون امكانية الحصول على تعويض لما لحقهم من خسائر واهانات ثم لا يرد
اليهم اعتبارهم !

اما الحماية القنصلية فقد امتدت بطبيعة الحال حتى شملت كافة موظفي
ومستخدمي القنصلية ومن ضمنهم الخدم . ففي عام ١٨٤٢ شكى قنصلنا في
بغداد اوجع الشكوى من ارغامه على انتظار عشرين يوماً في سبيل معاقبة
احد الرعايا الاتراك (وكان هذا التركي احد تجار البلد الاثرياء) وقد
صفع خادم معاون القنصل . فكتب يقول : « لقد اقتيد الجاني امس الى
القنصلية ووضع تحت تصرفي . وبعد ان وجهت اليه تقريرات عنيفة قبلت
اعتذاراته القائمة على الجهل الذي ادى به الى صفع خادم احد موظفي
القنصلية » . وينبغي لنا ان نقول اذا اخذنا بنظر التصديق ما يرويه مواطننا
ان الوالي في تلك الفترة قد نجم من احط الطبقات الاجتماعية فلم يكن
ليحسن القراءة او الكتابة ولم يكن ليخضع الى اي قاعدة او نظام ولم يكن
ليحترم اي شيء وليست له طاقة عظيمة محفوفة بالاناة والروية ذلك لانه
وحش كاسر بقدر ما هو ابله وبليد . فتعرضت القنصلية في عهده الى الوقوف
مواقف محزنة وساءت احوالها وتدهور نشاطها » .

اما مساعي ممثلينا لصالح المسيحيين فقد كان غرضها اما فتح الطريق
امامهم للتخلص من تعسفات الموظفين المحليين وتصرفاتهم الكيفية واما لفرض
احترام الحقوق التي اعترفت لهم بها القوانين العثمانية . تلك القوانين التي
شد ما كانت تتجاهلها السلطات في هذه الاقاليم النائية !

وعلاوة على ذلك فان قنصلنا كان يتحتم عليهم في احايين كثيرة وجوب

التدخل لاعادة نساء الى عوائلهن أو لارجاع صبايا مسيحيات الى ذويهن عقب اختطافهن من قبل بعض الجنود او من قبل بعض العصايين الشقاة . ويقص علينا نائب قنصلنا في بغداد عام ١٨٤٠ احدى هذه القصص المؤلمة ويهنيء نفسه على النجاح الذي احرزه في هذا المجال فيقول : « ارجو السماح لي باخبار معاليكم بان الحماية التي انعمت بها فرنسا على الكاثوليك والتي اشعر بزهو وخيلاء من جراء كوني اداة هذه الحماية في بغداد — ارجو السماح لي باخباركم بأن هذه الحماية قد توجت بنجاح جديد باهر لامثيل له في هذه البلاد . . نجاح در على بلادنا وعلى عاهلنا المعظم وعلى كل ما يحمل الاسم الفرنسي بركة السماء التي دعا لنا بها الشعب المسيحي قاطبة دون استثناء . وهذا النجاح هو تحرير امرأة من العبودية كانت قد اختطفت منذ نحو خمس سنوات من احضان زوجها ومن حمى اسرتها وهي التي قد وجدت في حريم الباشا منذ ثلاث سنوات انصرمن ولم يكن بمقدور احد ان يجرأ على رفع صوته لصالح هذه المسكينة » .

ولكن انتصار معتمدنا ظل يعتوره النقص . ذلك لان المرأة كان لها بنت سجيئة هي ايضاً ولم يستطع صاحبنا الفوز بتحريرها . اما خلفه « فبعد مفاوضات صعبة ولكن بصورة سرية وهو احتراس ضروري كل الضروري تجاه التعصب العثماني قد توفق الى استلالها ليلاً من حريم الباشا وتسليمها الى والدها . ويضيف هذا المفاوضات السعيد قائلاً : « ان عودتهما الى مواطنيهما المسيحيين سيكون ظرفاً مؤاتياً لظهور النفوذ الفرنسي بهظهر المنتصر . وقد جاء رئيس الاساقفة السرياني (٢) ورجال كهنوته لتهنئتي

(٢) الرسالة المؤرخة في ١٥ حزيران ١٨٥٢ .

على هذه النتيجة السعيدة التي تكلفت بها مساعي . فاجبتهم بوجوب توجيه
هذه التهاني الى جلالته والى ايديه البيضاء . فارجو من معاليكم وضع هذه
هذه التهئات على قدمي الملك « .

القسم الثامن

حفلات الاستقبال الكبرى
ومراسيم الاعياد

في القرن التاسع عشر ، كما في ايامنا هذه ، كانت حفلة الاستقبال الكبرى السنوية لتفصلنا تقع في يوم العيد الوطني . ولكن واقع انا منذ عام ١٨١٥ لم يكن لنا في بغداد تمثيل رسمي قد عطل هذه العادة وجعلها نسيا منسيا لكن البارون دى فيمار الذي عين قنصلاً عاماً في سنة ١٨٤١ ، قد بادر الى استئناف الاحتفال بهذا العيد الوطني منذ السنة التالية لتعيينه واعلن عزمه الى وزيره بهذه العبارات : « ان عيد ملك الفرنسيين لم يحتفل به ابدأ في بغداد ، حتى ولو باقامة بعض الصلوات . وقد صادف يوم امس العيد السنوي الاول لهذه المناسبة اعتباراً من وصولي الى بغداد . فهرعت الى الكسبية اللاتينية مصحوباً بموظفي القنصلية وبالمواطنين الفرنسيين وبجميع تجار هذا القطر البارزين . فاخترق هذا الموكب حى بغداد التركي بأكمله وتجمع السكان لدى مرورنا ولم يظهروا اي استياء او تذمر من هذا المشهد الجديد الذي لم تقع عليه انظارهم من قبل . وبعد اجراء مراسيم القداس تلقيت زيارة رئيس الاساقفة السرياني ورجال الكهنوت اللاتينيين والكلدانيين والارمن والكاثوليك وكبار الموظفين الأتراك ومبعوث ايران . وفي امسية لليوم نفسه حضر الى دار القنصلية العامة رئيس الاساقفة السرياني ورؤساء رجال الدين لمختلف الطوائف والملل والنحل وارباب العوائل الرئيسية البالغة مائتي عائلة . فبلغ تعداد هؤلاء جميعاً أكثر من الف نسمة . وقد اضيئت دائرة القنصلية العامة اضاءة رائعة زادتها بهجة ونشوة انغام الافواج العسكرية التركية التي صدحت بالسمفونيات شطراً كبيراً من الليل . وكانت حروف اسم الملك تتألق انوارها . وقد وضعت في قمة هرم مضيء فكانت ترى من الصحراء فجذبت السكان اليها فازدحموا على شواطئ دجلة » . (١)

(١) الرسالة المؤرخة في ٢ مايس ١٨٤٢ .

ومنذ تلك الفترة ظلت تتكرر هذه الاحتفالات في كل عام وظل معتمدونا يحبرون التقارير الطويلة في وصفها وصفاً میناً متشابهه التعابير متماثل التهاويل في كل عام . ولكن في بعض الاحيان كانت تقع بعض الحوادث التي تكدر صفو هذه الاحتفالات لاسيما الحادثة التي حدثت عام ١٨٤٤ والتي ينقل الينا اخبارها البارون دى فيمار فيكتب قائلاً : « ان مصيبة عكرت رونق هذا النهار الجميل . اذ لدى اطلاق المدافع الأخيرة تحية لجلالة الملك من على ظهر زورق بخاري يعود لشركة البلاد الهندية انفجر حشو المدفع قبل اوانه فطارت معه يد المدفعي الذي ضغط القطعة . وتناثر بعض ذراعه كما جرح راسه واحترقت عيناه بالبارود (٢) . وقد اجريت له عملية بتر في الحال وتؤمل انقاذ حاسة بصره . . وفي اصبوحة اليوم التالي قصدت ظهر الباخرة قبل ان اتبين وقع هذه الحادثة لدى جلالتيكم ولدى حكومتكم وما ستوجيه الى الطرفين محكماً عقلي في هذا الموقف الذي املى علي ضرورة ابداء الاهتمام اللازم بالجندي الشاب المشوه واطهار الاسف على وقوع هذا الحادث فحصلت من القنصل البريطاني العام ومن قائد السفينة على السماح بتقديم بعض الهدايا الى الجريح بانتظار استطاعة اعلام حكومة الملك . وهكذا وايا كان الاجراء الذي سيتفضل جلالته فيأمر باتخاذ ، وسواء اراد معاليكم اعتبار هذه النفقات نفقات موقته أو نفقات نهائية ، بوصفها اشياء اقتضتها الاحتفالات بعيد جلالته ، فهي تبقى على نفقات المعتمدين او بوصفها نفقات مستحقة للدفع وهي الهدايا التي اعتقدت ضرورة تقديمها ، فاني قد راعيت باحترام عميق كافة الحقوق التي يعود النظر في

(٢) الرسالة المؤرخة في ٦ مايس ١٨٤٤ .

مارستها الى جلالته والى حكومته على وجه التخصيص » . (٣)

وبعد مرور شهرين على هذا التقرير ابدى الوزير موافقته على الشكل التالي : « لقد تألم جلالته اوجع الألم على الكارثة التي حلت بالمدفعي الذي تشوه هذا التشوه المفجع . واني أويد كل التأييد واستحسن كل الاستحسان الدافع الذي حملكم على تقديم هدية قدرها خمسمائة وخمسة وعشرون فرنكا الى هذا العسكري واخولكم مضاعفة هذا المبلغ . على ان تدرجوا كل هذه المبالغ في باب نفقات الخدمة المتعلقة بكم وترسلوا الي في الوقت نفسه ورقة مخالصة تتخذ كمستند لتبرير هذا الصرف » . (٤)

وكانت الحوادث السعيدة او التعيسة التي تقع للاسرة الملكية تدعو كذلك الى اقامة الاحتفالات الدينية . فان موت دوق اورليان مثلاً قد اقتضى اقامة الصلوات الجنائزية . واغتم البارون دي فيمار هذه الفرصة ليعن ولاءه في اسلوب فخم طان رنان كان مقبولاً ومرغوباً في تلك الفترة فكتب يقول : « ان الكارثة الشنيعة التي اغرقت الملك بل الاسرة الملكية بل وفرنسا بقضها وقضيضها في خضم الام لم تحدث شجى اهل منه وقعاً وعمقاً في هذا الجزء النائي من عربستان * . فما ان بلغت اسماعي هذه المصيبة الفادحة ، التي لا سبيل الى علاجها ، حتى جمعت المواطنين الفرنسيين ورؤساء واعيان المسيحيين في هذه البلاد لأعلن لهم هذا الخطب الجسيم . فادرك الجميع الام الملك واحزان اسرته واوجاع الامة باسرها وشاطركم الاسى والشجى كافة المشمولين بحمايتكم من المسيحيين في الشرق .

(٣) الرسالة الموءرخة في ٢ ايلول ١٨٤٢ .

(٤) الرسالة الموءرخة في ١٦ مايس ١٨٤٦ .

(٥) المقصود هنا البلاد العربية وليس منطقة عربستان في جنوبي ايران

لقد رأيت عيون هؤلاء تفيض بالدموع الفرنسية كل الفرنسية وتهطل على الحدود (كذا) كلما اعنت في اظهار تفاصيل الصفات العالية الرائعة القوية للامير الذي نكبنا بفقدانه والذي جعلتهم يعلمون بأي اعمال مجيدة وبأي اخطار خاضها وبأي تصرف نبيل حاز مولاي دوق اورليان وهو ما يزال في ريعان شبابه على تعلق الامة بشخصه وعلى ثقة الجيش وعلى تقدير دول اوروبا . ومنذ هذا الصباح نكس العلم الفرنسي الى نصف الصاري معلنا للمدينة العثمانية المصيبة التي قصمت ظهورنا . وفي الوقت نفسه اقيمت صلاة جنازبة كبرى اشتركت في تأديتها جماعات الكليروس للطوائف الأربع اللاتينية والسريانية والارمنية والكلدانية بحضور رئيس الاساقفة السرياني وقصل فرنسا العام وموظفي القنصلية والمواطنين الفرنسيين وكانوا جميعاً يرتدون ثياب الحداد . فغصت الكنيسة اللاتينية بجمع مسيحيي هذا القطر . وكان ختام هذا الاحتفال الأليم صلاة عامة خاشعة أرتفعت خلالها الدعوات الحارة الى الله طالبة اليه اطالة حياة جلالته التي تضاعفت قيمتها بوقوع هذه الخسارة الفادحة » .

وفي عام ١٨٤٦ حدثت محاولة لاغتيال حياة الملك لويس فيليب من قبل شخص يدعى (فيكي) (أ) فاقامت بهذه المناسبة صلاة الحمد والشكران موجهة الى الله سبحانه وتعالى على المنة التي منها على الفرنسيين بانقاذ حياة مليكهم . فكتب البارون دى فيمار احد كبراء خدام البلاط الملكي ما يلي : « ان العدد الصغير من الفرنسيين الموجودين في بغداد يضم صوته الى صوت معتمد حكومة الملك ليضع الجميع في هذا الظرف المؤلم على قدمي جلالتكم التعابير الفياضة بالاحترام عن الاحساسات التي تخالج نفوسهم . وان السكان الاصليين انفسهم يرون في هذه الحادثة آية على الحماية السماوية التي شمل

بها الله فرنسا والامير المعظم الذي يحكمها . وان الزيارات التي انتهت هذا اليوم على دار القنصلية بهذه المناسبة تظاهرة اجماعية لهذه الفكرة « (٥) ومن بين الحوادث المهمة في ايام حكم لويس فيليب ذلك الحادث الذي يبدو انه قد وقع له اعظم دوي هائل في هذا القطر الاسلامي واعنى به استسلام عبدالقادر الجزائري الذي كان له عن طريق اسرته روابط دينية تربطه بالعراق . كما كانت له شهرة واسعة في هذه البلاد استناداً الى ما ينقله الى علمنا البارون دى فيمار ضمن رسالة كتبها في شباط عام ١٨٤٨ . قال فيمار : « لقد كان للخبر وقع هائل في بغداد حيث كان يسود الاعتقاد بين سكانها بدوام المقاومة التي يشبها عرب واتراك هذا القطر دائماً من خلال احاديثهم معي بالحرب الفعالة التي يخوضها (شامل) ضد القوات الروسية في القفقاس . وكان للاهتمام المتعلق بهؤلاء الاشخاص والذي هو نابع قبل كل شيء من المشاعر الدينية للمسلمين بواعث اخرى في الوقت نفسه . فان عبدالقادر من جانبه ان لم يكن قد ترك في العراق اقرباء فهو على الأقل قد خلف بعض الذكريات في بغداد . وان العجائز اللواتي يقمن في محلة جامع ويجوار مرقد الشيخ عبدالقادر الكيلاني ذائع الصيت يدعين بانهن يتذكرن عبدالقادر الشاب الذي جاء في عام ١٨٢٨ زائراً لبغداد . وكان له في هذا الجامع ظهور قرر مستقبله . وان تعصب سكان المحلة التي يوجد في حماها قبر الشيخ ودار القنصلية الفرنسية معاً لا يستطيع ان يسلم بأن التنبؤات التي نبيء بها عبدالقادر في عتبات بغداد المقدسة قد كذبها الواقع على هذا المنوال . ومن الجهة الاخرى فان الاسم الفرنسي قد ازداد ابهة في

(٥) فيكى هو متامر ولد في مورأتو من اعمال كورسيكا ١٧٩٠-١٨٣٦ . وقد حاول اغتيال حياة لويس فيليب بواسطة آلة جهنمية عام ١٨٣٥ فنفذ فيه وفي شريكه ، وهما بيبيان ومورى ، حكم الاعدام (قاموس لاروس) .

اعقاب هذا الحادث . ولدى وصول هذا الخبر رفع العلم الفرنسي على محل
الاقامة القنصلية . وجاء عدد كبير من السكان يتساءلون عن حقيقة الباعث
على هذه التظاهرة التي حكمت بضرورة القيام بها في هذا البلد المتقهقر
حيث يمكن لاوضح الوقائع واظهرها وقوعاً ان ينكرها المنكرون بسهولة .
ولكن مهما كانت درجة صدق ولاء البارون دى فيمار الملكي الذي
لايخالجني ادنى شك حوله فان هذا البارون كان مع ذلك تضج نفسه ببعض
الحزابات المكظومة تجاه (گيزو) . لان البارون دى فيمار يعتقد ان مسيو
گيزو لم يسانده المساندة اللازمة الفعالة في صراعه ضد والي بغداد بل لاذ
بالاناة والروية اكثر مما يجب في مداراة الوالي الذي كان دى فيمار في حرب
ضروس معه دفاعاً عن محمينا في الشرق . ولهذا انحاز دى فيمار دور
تردد الى جانب الجمهورية و اشار على مرؤوسيه بان يحذوا حذوه . وقد
كتب في الثاني عشر من نيسان عام ١٨٤٨ الى باريس الرسالة التالية : « لي
الشرف ان أعرض لكم وقوفي الى جانبكم . وارجوكم ان تتقوا الى الحكومة
الموقته اعلان ولائي لحكومة الجمهورية كما علي كذلك ان احمل اليكم
انحياز موظفي هذه القنصلية والرعايا الفرنسيين المقيمين في بغداد اليكم بعد
ان كلفوني بهذا الطلب . ولما لم يصل الى بغداد اي خبر عن قبول هذا
الولاء لا من الحكومة المركزية ولا من ممثلها في القسطنطينية فاني قد ارغمت
ارغاماً على الاقتصار على اعلام حاكم بغداد العام بصورة غير رسمية بالوقائع
التي حدثت في فرنسا وبالتحديد الرائع في حالتها الاجتماعية والسياسية .
وانني منتظر اوامرکم . كما انني أعهد الى انصاف حكومة الجمهورية
بموظفي ومستخدمي هذه القنصلية الفرنسيين منهم وانباء هذه البلاد . وكلهم
من قداماء خدام فرنسا المتفانين في خدمتها والذين اظهروا في هذه الظروف

الجديدة انبل المشاعر نحو فرنسا » .

وفي اليوم نفسه كتب مواطننا الى معتمدنا القنصلي في الموصل معلماً اياه بقراره وكاشفا له عن الآمال التي يعقدها على الحكومة الجديدة وعلى الاخص اعتماده على وزير الخارجية الفرنسية ، فقال : « نظراً لافتناعي بأن وكلاء امة من الامم الحرة الدستورية هم مبعوثو البلاد نفسها فاني اعلن بملء ارادتي وبكل ولاء واخلاص عن تأييدي لحكومة الجمهورية . كما ارى من واجبي الذي انجزته بسهولة ان ابعث اليكم بتأييدات موظفي القنصلية وبتأييد العدد الصغير من الفرنسيين القاطنين في بغداد . واني منذ سنوات كثيرة الكفح في القسطنطينية وفي باريس نفسها ضد التخلي عن حتموقنا في الشرق : وان الحكومة التي تستطيع وتريد اتشالنا من هذه الوهدة يجب ان تكون قد وصلت الى الحكم معها .

وان راي مسيو دي لامرتين في مجلس الامة حول موضوع شؤون الشرق هو ضمان للمستقبل في سبيل اعادة استتباب نفوذنا . وان رحلته الى تركيا في عام ١٨٣٢ قد اطلعت على المصاعب الجمة التي يتجشمها معتمدونا في هذا القطر . فلا ترتابوا بالاهتمام الذي يوحه الي اولئك الذين يقيمون في الشرق منذ عهد بعيد » .

ولكن المضحك في الموضوع ان قنصلنا العام الذي كان يوقع دائما في الايام الخوالي هكذا « بارون دي فيمار » قد تكيف للحالة الراهنة التي تتطلبها الجماهير الشعبية فطمس على لقبه .

وقد اغتبط مسيو دي فيمار كل الاغتباط بالاستقبال الذي استقبلت به السلطات المحلية النظام الجديد . فكتب في الرابع والعشرين من نيسان يقول : « في يوم عيد الفصح وجد قنصل الجمهورية نفسه محوطا بكل مظاهر

التجلة والاحترام وبكل معاني الاكبار والتقدير . فان قنصل انكلترا العام ، وهو معتمد سياسي لشركة بلاد الهند ، قد جاء الى القنصلية الفرنسية وكذلك جاء مواظوه . كما ارسل الي الحاكم العام مترجمه الاول مهنتاً ايبي . وقد ظهر الموظفون العثمانيون ووجهاء المسلمين والمقيمون الاوربيون ورجال الدين من مختلف الطوائف والسكان المسيحيون قاطبة في دار القنصلية فهناوني كل بدوره . اما الشعور العام والفكرة التي تبدو انها سائدة في هذه المدينة حيث اوربا وانظمتها لا تكاد تعرف هنا فقد كانا رأياً رفيعاً بمقدرات فرنسا الحالية وترحيباً تاما بمعتمدها وبمواظيه وتكريماً لهم . »

وبعد كتابة هذه الرسالة بيومين وصلت بلاغات الحكومة المؤقتة الأولى ففسرها قنصلنا العام على هذه الشاكلة : « يبدو لعيني من هذه الوثائق المختلفة ان خط سلوك معتمدى الجمهورية قد رسم من قبلكم في هذه الكلمات الثلاث : اخلاص وكرامة واتزان . وهي لاتنطبق على واجبات المعتمدين نحو دولتهم فحسب وانما تنطبق على ما يجب ان تفعل الحكومة العثمانية تجاه هذه المبادئ . اذ يقع عليها عدم نكران الدفاع الجدي عن حقوقنا . كما يجب عليها ان تتقبل اهتمامنا بالسكان المسيحيين . وان تسعى الى تحقيق التزامات وعهود السلطان في التخفيف عن كاهل كافة افراد شعبه وتحضيرهم ، ولو اننا لا نشهد آثار هذه الالتزامات وتلك العهود . ولما كان لي شرف اعادة استئناف نشاط القنصلية الفرنسية العامة منذ سبع سنوات في بغداد حيث لم اتوان منذ تلك الفترة عن العمل بكل ما لدي منى طاقة في صيانة النفوذ الفرنسي وفي توسيعه — فاننى لسعيد ، يا سيادة الوزير ، باستطاعتي مواصلة هذه الهمة مؤيداً من قبلكم ، وبان اضع في خدمة الامة تجربة الوقائع التي اكتويت بنارها وثمار العلاقات الشخصية التي

افاءتها علي اقامتى الطويلة المتصلة في هذا الاقليم القصي من اقاليم اسيا .
لست ادري ان كان هذا التأييد الحماسي السريع للبارون دى فيمار قد
اعقبه ترفيح له لانني اعلم كل العلم ان اسمه قد اختفى حينئذ من ارشيفات
هذا المنصب . لانه لأسباب تتعلق بالاقتصاد ولا ريب قد خفضت درجته
الى نائب قنصل وترك بدون وظيفة الى نهاية عام ١٨٥٠ وهو تاريخ وصول
(ليزيماك تافرنيه) الى بغداد .

وكان لاعلان الامبراطورية بعض الدوي في هذه الربوع . حيث كانت
الحملة المصرية قد تركت ذكريات على شيء من الحياة . ففي عام ١٨٣٥
تحدث قاصدنا الرسول عن الزيارة التي اداها اليه احد الضباط الاتراك
فكتب الى باريس يقول : « لقد اطرى هذا الضابط الفرنسيين وتحدث عن
الانسان الذى لم يعد له وجود فائى على بطولاته واجماده الحرية ومدح علمه
العسكرى ودخن وشرب قهوة وانصرف » . وفي السادس والعشرين من آب
١٨٥٤ كتب كذلك قنصلنا في الموصل وهو پلاس العالم الاثارى يقول :
« لقد ظل اسم نابليون اسماً شعبياً في الشرق وبقى يعتبر في هذه الديار
رمزاً للقوة . اقول ذلك دون مداجاة او محاباة . لانني مازلت اتذكر الاثر
الذي احده هذا الاسم العظيم في بلادنا النائية عندما انتشر الخبر بانه ما
فتيء يمسك مرة اخرى بمقدرات فرنسا . ولانني ازداد اندهاشا واستغرابا
كل يوم من ان تاريخ الامبراطور يعرفه الناس هنا وهم على ما هم عليه من
جهل مطبق لا يصدق اكثر مما يعرفون عن تواريخ سلاطينهم » .

وينبغي لنا ان نقول ان مسيو پلاس الذي كان يتحمل انذاك مهمات
قنصل الموصل ومتاعب العالم الاثارى في خورصا باد قد ساهم كثيراً في جعل
اسم نابليون اسماً شعبياً في تلك المنطقة بفضل الاحتفال الذي كان أقامه

لعماله بمناسبة اعلان الامبراطورية : وقص قصة هذا الاحتفال بنفسه في باريس في الخامس والعشرين من شباط ١٨٥٣ فقال : لم يبلغني خبر اعلان الجمهورية الا في غاية التأخر . ولكن ما ان تلقيت هذا النبأ حتى صممت على جعل عمالي الكثيرين يشعرون بشعور السعادة الذي عمت الافراح من جرائه كل ارجاء فرنسا . وبعد اجراء المراسيم الدينية في الموصل توجهت الى خورصاباد وأولت وليمة هوميروسية وأعدت الثيران والانعام والارز . حتى طعم جميع العمال واكل كذلك منها النساء والاطفال . اما بالنسبة لهؤلاء العمال الذين لايفقهون السلطة الا متجسدة في شخص العاهل فان هذه الحفلة كان لها مغزى عظيم نافع كل النفع لنفوذنا . وقد تجاوز التأثير هذه المنطقة بسرياته الى المناطق الجنوبية نتيجة ما عم هؤلاء الشغيلة من مسرات وافراح . وفي تلك الامسية عندما كانوا يرقصون حول ثور مجنح من المرمر ، هائل مستخرج من القصر الاشوري كان المغنون يهزجون بمقطوعات شعرية دام انشادها حتى ساعة متأخرة من الليل ترافقها ابيات تشيد بعظمة الامبراطور . ولدى نهاية كل مقطع كان الاعراب يضجون بالانغام على هيئة جوقة موسيقية قائلين ، « الله يجعل عمر باديشاه فرنسا الف سنة ! » وكان هذا المشهد بالنسبة لي مشهداً لم ار اروع منه وانا اشاهد هذه الجموع الغفيرة التي اكاد اسميها همجية وهي تفرح وتمرح على هذه الدرجة من الحماس والفوران العاطفي في حين ان الاعمدة الحجرية العملاقة التي اضاءت وجوهها انوار المشاعل اللاهبة كانت تتأمل في شيء من الجمود هذا المنظر الغريب وهو الشاهد الاخرس بعد ثلاثة آلاف سنة على اعلان جمهورية جديدة في حين انها كانت قد رات اقدم جمهورية في العالم .

ولكن حيث لم يكن يوجد ممثل فرنسي يطلع السكان على قيام الجمهورية

الثانية فان الحالة كانت سائرة على نهج اخر مختلف كل الاختلاف . وان نائب قنصلنا في بغداد مسيو (بليزيه) الذي التحق بمنصبه في عام ١٨٦٦ عن طريق البحر كان قد اضطر على التنويه بهذه الحالة والافضاء بالامر الى رئيسه فكتب يقول : « اقول لكم والاسف يملأني حزناً ، يا سيادة الوزير بانني استطعت اقناع نفسي في بندر عباس وخصوصاً في بندر بوشهر بقلة من يعرف احوالنا في هذه السواحل البعيدة . . لقد وصلت برحلي الى البصرة مع تجار اغنياء من جزائر البحرين ومن بقاع الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية : وقد تحدثت طويلاً مع هؤلاء اثناء الساعات الطويلة التي قضيناها في اختراق هذه الاماكن واستطعت كذلك ان اقنع نفسي بان الناس في بلاد هؤلاء ليست لهم اية فكرة عن عظمة وقوة حكومة الامبراطورية . وقد تحدثت الي هؤلاء السكان عن سلطان الفرنسيين السابق بوناپرت الذي كان في نظرهم شيطانا لم تستطع قهره واستئصال شافته الا انكلترا (هكذا يزعمون) . ولكنهم يجهلون جهلاً تاماً ان ابن أخ هذا الرجل العظيم يحكم فرنسا المكلفة باكاليل الاجماد منذ قرابة عشرين عاماً ولكن مقابل ذلك كان هؤلاء الناس يعرفون كل شيء عن الملكة فيكتوريا » .

واياً كانت الحالة فان الفرنسيين قد احتفلوا احتفالاً فخماً مهيباً في دور قنصلياتنا بعيد نابليون ، احتفالاً مشبهاً لاحتفالهم بعيد الملك المواطن . ولكن لسوء الحظ كانت تقسيمات الميزانية تحول في بعض الاحايين دور اعضاء الابهة المرغوبة على هذه الاحتفالات . وقد شكنا مسيو نيكولا قنصلنا في بغداد بصورة خفية من هذه الحالة وذلك في رسالة وجهها الى وزارة الخارجية في الخامس من ايلول ١٨٥٤ فكتب يقول : « كم كان بودى ان اقيم مأدبة بمناسبة عيد الخامس عشر من ايلول كتلك المأدبة التي اقامها قنصل انكلترا

في عيد الملكة ، مآدبة شرعنا بتهيئة مقتضياتها واوشكنا ان ندعو اليها وجوه بغداد واعيانها . واكنني تلقيت المنشور الذي لي شرف تلقيه من قبلكم بتاريخ الثامن عشر من مايس الاخير (٦) فاضطرت اضطراراً على ايقاف عمليات التهيؤ وقبعت داخل وسائل الضعيفة مكتفياً باقامة مائدة عشاء حضرها جميع الفرنسيين وكل المشمولين بحماية فرنسا من المقيمين في بغداد . ومع ذلك فلم يكن الاحتفال البسيط هذا ليقل رونقاً وبهاء . لأن الأناخب التي شربت مصحوبة بالهتاف بصحة جلالة الامبراطور وبنجاح جيوشنا لم تكن لتقل روعة عن انخاب الاحتفالات بملكة انكلترا وبالسلطان ، (٧) ولم تكن دونها عدداً ، وقد رفعت في ذلك اليوم اشارة الى الاتحاد التام السائد بين الدول المتحالفة الثلاث الاعلام الثلاثة : العلم الفرنسي والعلم الانكليزي والعلم التركي . اما الوالي الذي كان بيني وبينه سوء تفاهم بسيط من جراء تأخره في ارسال ممثله الى القنصلية ليقوم بالتبريكات المعتادة والذي قدم اعتذاراته المرغوبة بنفسه في دار القنصلية فقد عني كل العناية برفع العلم التركي على القلعة حيث ظل خفاقاً حتى غروب الشمس . واما قنصل انكلترا الذي انا واياه على خير ما يكون الوثام فقد رفع هو ايضاً العلم البريطاني على دار قنصليته .

ان الانظمة تزول واما الأعياد الوطنية فتبقى وتبقى معها مراسيم الاحتفالات التي لاتبدل . ففي عام ١٨٨٢ التمس نائب قنصلنا في بغداد مسيو پيريسيه برسالة مؤرخة في الخامس والعشرين من تشرين الاول نوع معونة لمدارسنا الدينية وحكم بنفسه على صلاح تبرير هذا الطلب بالاعتبار التالي :

(٦) لم أستطع العثور على هذا المنشور الذي لابد ان يكون قد نص على اجراءات

اقتصادية .

(٧) نحن هنا اثناء حرب القرم .

« ان خادم حكومة الجمهورية المتواضع المخلص ليخون واجباته اذا لم يلفت
انظار مقام معاليكم العالى الى موقف المبشرين في بغداد بوصفهم مواطنين .
لقد كان موقفهم في جميع الظروف ، يا سيادة الوزير ، موقفاً صحيحاً صائباً ،
فقد تصرفوا تصرف الفرنسيين ونعم الفرنسيين . ولم يبد منهم اى اعتراض
مهما كان طفيفاً عندما طلبت منهم ان يهتفوا باللاتينية بدعاء سلامة الجمهورية .
كما انهم لم يعارضوا في الهتاف بحياة الجمهورية بالفرنسية كما هي العادة
في ختام القداس الرسمي فهتفوا مع الهاتفين . ذلك الهتاف الذي رددته
الجالية الفرنسية بأسرها . »

وكانت تقام احتفالات مهية بمناسبة مرور شخصيات مرموقة ببغداد :
وها هو مسيو فيدال نائب قنصلنا في بغداد يصف لنا عام ١٨٤٠ حفلة
الاستقبال التي اقيمت لسفيرنا في طهران مسيو دى سيرسي فيقول ما يلي :
« لي الشرف ان اخبر معاليكم بان الكونت دى سيرسي قد وصل الى هذه
الديار صحيحاً معافياً بعد رحلة صعبة دامت ثلاثين يوماً في قطع المسافة بين
اصفهان وبغداد . وقد خففت لاستقباله من مسافة ستة فراسخ مصحوباً
برؤساء المؤسسات التجارية المشمولين بالحماية الفرنسية ومعى كذلك شيخ
عشائر ولاية بغداد وخمسون فارساً من قبل الباشا الذي هياً بناء على طلبي
مسكناً مناسباً لمعالي السفير وحاشيته . وفي اليوم التالي ارسل الباشا صهره
قائد القوات مع الاعضاء البارزين في مجلس الادارة مهتئين الكونت دى
سيرسي بسلامة الوصول . وامس زار سفيرنا الوالي فقبل بترحاب وحفاوة
فائتين . وكانت القوات العسكرية كلها مدججة بالسلاح . وانتظر الباشا
وحاشيته كلها وجميعهم يرتدون الالبسة الرسمية لدى مدخل قصر الولاية

خارج قاعة الاجتماعات الكبرى وصول معاليه ، فلما وصل بسط الوالي اليه يده
وادخله الى غرفة الاستقبال .

لقد فقد الاسم الفرنسي اشراقه وبهائه منذ بضع سنوات في هذه
الاقطار النائية وقد آن لفرنسا الآن ان تسترد اعتبارها فيها « .

القسم التاسع

علاقات قناصلنا بالجمالية الفرنسية

كانت الجالية الفرنسية في العراق خلال القرن التاسع عشر ضئيلة العدد للغاية . فاذا تركنا جانبا المبشرين الذين ستتحدث عنهم في قابل الصفحات فان افراد هذه الجالية كانوا يتجاوزون قليلاً عدد الاصابع : فهم اما تجار مقيمون في العراق واما تجار قادمون الى العراق بصورة منتظمة لتمشية شؤونهم . وفيهم العلماء بصورة عامة وعلماء الآثار القديمة بصورة خاصة . وبينهم موظفون في خدمة الحكومة العثمانية . وكان عددهم يصل الى تسعة انفار في بغداد في عام ١٨٤٥ يضاف اليهم بعض المسلمين الجزائريين وبعض رعايا الدول الاجنبية الاخرى الذين عهدوا الى فرنسا بمهمة حماية مصالحهم . وبالرغم من ضآلة عدد افراد هذه الجالية — بل لعل ضآلة العدد هي السبب في ذلك — فان الوفاق لم يكن سائداً على الدوام بين صفوف مواطنينا . ففي عام ١٨٣٦ كتب القاصد الرسولي — الذي كان يقوم حينئذ بمهام القنصل — الى باريس شاكياً من معتمدنا القنصلي في البصرة مسيو (فوتانييه) الذي يرميه بالكفر والزندقة والادمان على السكر والعردة حين تدور ام الحباث في راسه ، ويتهمه بالمتاجرة بسفاهات وضيعه وبغرقه في الديون . وباخلاق شائنة فاضحة : وكتب عنه كذلك يقول . « يزعم هذا الدعي انه طبيب وبالفعل فهو يمارس هذه المهنة المزعومة في سبيل الاندساس في البيوت لرؤية النساء والصبايا ولاشتهتهن . وقد كشف سلوكه القذر القناع عن شوذوته . وانقطع الناس عن الاتصال به بأي شكل من الاشكال . ولكننا نستطيع ان نضع مرضوعية مراسلنا هذا موضع الشك لانه يضيف الى ذلك

قائلاً انه يرتاب في نوايا (فوتانييه) الذي عساه يطمح الى الحلول محله
يصبح قنصلاً بدله .

وعلاوة على ذلك ففي هذه الفترة كان لمعتمدنا بعض الحقوق في تطبيق
القوانين والانظمة على رعايانا . لان قوانين عام ١٧٧٨ وقوانين عام ١٨٣٦
كانت تخولهم بصورة خاصة ارغام الفرنسيين على مغادرة البلاد . ففي عام
١٨٤٧ استند قنصلنا العام في بغداد البارون دى فيمار على هذه القوانين
فأمر بطرد ملا يدعى مسيو (فونفريد) لانه ارتكب بعض اعمال العنف
اثناء مروره ببغداد فاصبح مجرمًا . ولما احتج هذا على هذا الاجراء وقفت
وزارة الخارجية بجانب القنصل العام واقرت بصواب تصرّفه واظهرت اسفها
على سوء نية مسيو فونفريد في مقاومته امر القنصل العام بحقه .

وفي نهاية هذا القرن تأثر قنصلنا في بغداد مسيو پونيون اوجع التأثر
من تصرف سيده فرنسية من عليّة القوم هي الكونتس فلانة التي اقامت بضعة
اسابيع في عاصمة الخلفاء بصحبة شيخ عربي يافع وقعت في شباك غرامه
والذي حملت السلطات التركية على اخراجه من السجون وكان معتقلاً فيها
كرهينة . فطاف هذان العاشقان في الأسواق كأنهما يريدان الاعلان عن
حبهما حتى علم بأمرهما الخاص والعام وفاحت روائح الفضيحة .

اما الرعاع والغوغاء والدهماء فكانوا يرشقونهما بانواع الشتائم والمسبات .
واما السلطات فارتعدت وقلقت . واما مسيو پونيون فقد قص قصة هذه
الملحمة الغرامية في بضع برقيات . لقد رأى بالرغم من الانطباع المحزن
المخجل الذي تركه تغنج واستهتار هذه الفرنسية ان من واجبه ان يدعو
مواطنته المغتاج الى تناول طعام الغداء ، ولكنها قابلته بحملة عنيفة من الشتائم
ضد حكومته بحيث رأى من الافضل عدم العودة الى دعوتها الى طعام .

ويصف قصلنا بعبارات لذيدة رائقة هذه العاشقة فيقول : « كانت جولات العاشقين تخترق المدينة طولاً وعرضاً وصباحاً ومساءً . وهما يظهران في كل مكان وفي كل زمان يداً بيد وذراعاً بذراع . وقد ملت من وقع اقدامهما بلاطات الاسواق وها انتا نراها تحمى بمظلتها الباريسية شيخ العاشقين لثلا تفتح بشرته النحاسية الشمس . ترد اشعة الشمس عن ملامح ابن الصحراء السمراء » .

ولكن لكل شيء نهاية في هذا العالم . وهكذا افترق هذان العاشقان ولكن بلطف ورقة وحنان كما يبدو . فالتحق الشيخ بعشيرته مثقلاً بالذهب والهدايا . في حين ان السيدة الجليلة توجهت الى طهران لتقديمها رسالة من قصلنا مرسلة الى وزيرنا في فارس محذرة اياه من مواطنة ماجنة متهتكة الى مالا نهاية .

ولكن غالبية الجالية الفرنسية كانت مؤلفة من المبشرين الكاثوليكين والرهبان والراهبات . فالكراملة منهم في بغداد والدومينيكان منهم في الموصل . وعلى سبيل المثال كان يوجد في عام ١٨٦٧ في بغداد ثلاثة اباء فرنسيين يديرون مدرسة للطلاب البرانيين (الخارجيين) ويوجد خمس راهبات منهمكات بادارة مدرسة للبنات . وفي عام ١٨٨٢ كان للرهبان الفرنسيين عدة منشآت في الموصل : فهناك مدرسة اكيريكية للاكليروس الكلدان ويبلغ عدد طلابها (٢٩ طالباً) وهناك مدرسة للطلاب البرانيين ويبلغ عدد طلابها (١٤٠ طالباً) ١١٠ منهم من الطلاب الكاثوليك و ٧ من الطلاب المسلمين . وهناك دار للعجزة . وهناك مطبعة عربية . اما بالنسبة للبنات فهناك الأخوات راهبات التقدمة اللواتي كن يقمن بادارة مدرسة داخلية لرعاية البنات اليتيمات وعددهن ١٢ طالبة . كما كن يدرن مدرسة برانية يبلغ طلابها

٢٣٤ طالباً ١٨١ منهم من الكاثوليك و ٣٠ منهم من المسلمين : اما الموظفون الفرنسيون لهذه المؤسسات فقد كانوا عشرة اباة واحدى عشرة راهبة من الاخوات . وكانوا بالاضافة الى ذلك يعاونون في ادارة خمس عشرة مدرسة كاثوليكية مبعثرة في كافة ارجاء القطر .

وهذه المؤسسات كانت تتلقى اعانات من الحكومة الفرنسية : ١٥٠٠ فرنك لبغداد عام ١٨٦٧ و ١١٥٠٠ فرنك للموصل في عام ١٨٨٢ . ولكن قناصلنا الذين كانوا يفتشون هذه المنشآت بدون انقطاع كانوا يشكون من قلة عدد الطلاب الذين يتعلمون اللغة الفرنسية . كما كانوا يضجون بالشكوى من نوعية التعليم . وكانوا يجاهدون في معالجة هذه الحالة ولكنهم كانوا يصطدمون بلا مبالاة اولياء الطلاب من جهة وبجمود المرين من الجهة الاخرى .

اما العلاقات بين السلطات المدنية والسلطات الدينية فقد كانت بصورة عامة حسنة ايام حكم الملكية العائدة وفي عهد ملكية تموز . ولكن هذه العلاقات ساءت وتعكرت عقب ذلك واصبحت على درجة لا بأس بها من التوتر في نهاية القرن . وإن القناصل ايجنون هاماتهم اجلاً للاعمال التي انجزها المبشرون . ولكنهم يشكون من تشريحهم بالروح التبشيرية ومن اهداف بعض القصاد الرسولين الطموحة .

ففي عام ١٨٥٧ حكم نائب قنصلنا في الموصل مسيو (بوفيه) حكماً صارماً على احد هؤلاء المبشرين فكتب يقول : « ان هذا الشخص هو اليوم (مثلما كان دائماً) ينبوع لا ينضب بخصوص اطلاق راحة القنصلية . . فهو يحمل روحية كارهة مبغضة . وهو متقلقل لا يستقر على حال . وهو استفزازي بشكل عجيب . وهو مسلح دائماً بالدسائس والاحاييل والخدع . وهو

لايستطيع ان يغتفر للاتراك كونهم مسلمين ! وهو يصرح بانه لا يضر لهم اية نية طيبة . وهو يخلف وعوده مع الناس اجمعين . وفي كل زمان . ومكان . وهو يحرضنا على السلطة ويحرض السلطة علينا ويدعنا يموج بعضنا ببعض ، وقد يدفعا الى خوض معارك جدلية شائكة مع هذه السلطة وقد يثير السلطة بغتة عندما يوشك الطرفان ان يلتقيا في بعض النقاط ويتصالحا . كل هذا ، يا سيادة الوزير ، ما يزال سهل التحمل بالنسبة لقنصلكم فعلى عاتق هذا القنصل يقع عبء تسوية اموره مع الحبر الفهامة لهذه البلاد . وهو لن يشكو من مسألة تافهة كهذه . ولكن هناك اسبابا اخرى اشد خطورة تدفعني دفعا الى مفاتحة معاليكم اليوم حول مونسيور (ب) . فان هذا يعود الى اخوية الجزويت . وهو مولود في فرنسا ولكنه يكره وطنه الاصلي . وهو يقول ان ملك نابولي يعادل على الاقل فرنسا ! وهو يجاهر بهذا الرأي ويرفع به صوته الى حد الزعيق . وهو يقول ان فرنسا مباءة للفساد . وحين يتحدث عن الامبراطور يلوى لسانه باسم بونابرت . وهو يقول حين يتحدث معي : « لم احب هذا العنصر ابدا » . وهو يقرأ جريدة (العالم) فيغلي راسه من هذه القراءة فيعتقد كما يظهر أن رأيه الشخصي لاغنى عنه لسلام اوروبا واطمئنانها . ويظل يطاردني بثرثراته لعل اشاركه في سفسافه . وهو يحدثني عن مقتنه للوالي بنفس اللهجة التي يتحدث فيها عن شماسه . وهو على علم واسع بالنوادير والطرائف والفضائح التي تخص قصور (التويلرى) . واوسع من ذلك علمه بالامراض التي تقرض صحة بونابرت قرصاً . ومعلوماته هذه تصدر من مصادر معصومة من الزلل والخطأ ! وانك لتعلم يا سيادة الوزير ، انني اقل الناس تحملاً لامثال هذه الاحاديث البائخة التي تطعن الامبراطور وفرنسا في اقدس اقداسهما . وسابدل مع ذلك

كل ما في طوقى للتمسك بالروية والاعتدال تجاهه حتى اليوم الذي يطيب
لمعاليتكم فيه ان يجد لي تدييراً حيا ل هذا الشخص فالتقى بهذا الخصرص
تعليماتكم التي انا بانتظارها على احر من الجمر ، فاغيشوني بها . وان هذا
السيد المتدب على خطأ في ان يدع الناس يترصدون حركاته وسكناته ويشكون
في اخلاقه ويتحدثون بحرية وانطلاق ودون تحفظ . وعلاوة على اندساسه في
كل مكان وعلى استقباله عدداً هائلاً من النساء في اوضاع وظروف وهيئات
مريبة ومن بين هؤلاء النسوة من اشتهرن بالاستهتار وسوء السلوك فانه
يرتكب بعض الحماقات كحماقة إلباسه في هذه الايام (كما يؤكد الناس
هنا) لاحدى نساء اصدقائه ثوبا فصل من رداء كان يرتديه منذ سبع سنوات
سلفه الذي ورث عنه هذا الرداء عند زينته الاسقفية » (١)

ولكني لم اجد في ارشيفات وزارة الخارجية اثرأ لارسال التعليمات
المطلوبة من قبل مسيو (بوفيه) . وينبغي ان نضيف الى ذلك ان مسيو
بوفيه قد وقع في مرض خطير في تلك الآونة فتولد لديه الشعور بالاضطهاد
فاظلمت موضوعيته وفسدت احكامه .

وقد وقعت لاحد اخلافه ايضاً وهو مسيو سيوفى خصومة مع القاصد
الرسولى لتلك الفترة الذي يرسم لنا صورتها على هذه الشاكلة فيقول . « انه
مخاتل مراوغ يظهر ما لايبطن . وهو منافق مداهن ناعم الملمس يعطيك من
طرف اللسان حلاوة حينما يريد الحصول على شيء . ولكنه متعطر متعجرف
تياه بل حتى متهور تجاه اولئك الذين هم بحاجة اليه او تحت رحمته .
وكل الوسائل لديه حسنة اذا افضت به الى مرامه (الغاية تبرر الوساطة)
وكل مفعول لديه جائز في سبيل بلوغ النجاح . وهو لا يخشى من بذر بذور

(١) الرسالة المؤرخة في ٦ آب ١٨٥٧ .

الفتن والقلاقل والاضطرابات في صفوف الناس ، وهو لا يتحرك في اغلب الاحيان الا بدافع الغرور أو بياعث من المصلحة . ويحلو له ان يمشى بالسياحة والنميمة بين الناس ولا يهمه في شيء ما تؤدي اليه هذه الاعمال من جروح بليغة في كرامته ومنزله . وان الرسالية هنا لا تمارس سلطانها على كاثوليك هذه البلاد الا عن طريق الاموال التي بحوزتها وليس عن طريق المودة والالفة والعواطف الاخوية . وهذا ما جعل هذه الرسالية لا يدور في فلكتها الا المداهنون والمتملقون والمتزلفون ، في حين يتعد عنها الاصدقاء ، وهم الكثرة الكاثرة من انصارها في هذه المدينة « (٢)

والواقع ان اشد ما ينقمه قنصلنا على المبعوث كان من الناحية البروتوكولية : فهذا المبعوث يطالب لنفسه بالتمتع بحقوق الصدارة والتقدم التي ينكرها عليه - وهو مصيب في انكاره - مسيو سيوفي ولا يعتقد باحقيقته في استعمالها الا في الاحتفالات والمراسيم الدينية . وأياً كان الامر فان المبعوث قد وصل الى روما ليرسمه الراسمون اسقفاً فوجد السفير يشكو منه مر الشكوى لدى قداسة البابا فاعترف بارتكابه الاخطاء ووعد بان ينسى الماضي . وعلى اثر ذلك كتب وزير الخارجية الذي لم يكن في ذلك العهد سوى (جول فيري) طالباً الى القنصل توجيه رسالة تبريكات الى الاسقف الجديد بمناسبة رسمه اسقفاً . واختتم رسالته بهذه العبارات : « اما بشأن العلاقات التي ستنشئها معه بعد رجوعه الى بلاد ما بين النهرين فلا يسعني الا ايصاؤك بمراعاة الاعتبارات التي كانت قائمة في ايام سلفه . على انني بالاضافة الى ذلك معتمد على كياستك وعلى حنكتك لاعطاء هذا الوفاق طابعاً دائماً ولتفادي عودة المتاعب التي تضر من حيث النتيجة بمحبي فرنسا

(٢) الرسالة المؤرخة في ٢٢ مايس ١٨٨٤ .

وبمقام البابوية وهو حب مشترك » . (٣)

ورغم ذلك فان هذه الخصومات الشخصية لم تكن لتمنع سيوفي نفسه من اقامة افضل العلاقات مع الدومينيكان في الموصل . فان هؤلاء الذين اظهروا اسماً ما تكنه الارواح النبيلة من رحمة وحنو واشفاق اثناء المجاعة التي عانت بمدينة الموصل على ١٨٨٠ قد توسل سيوفي الى الحكومة ان تمنحهم « ساعة خارجية دفاقة كانوا يشتهونها ويتمنونها منذ عهد بعيد ولكنهم لم يكونوا ليملكوا وسائل دفع اثمانها . على ان تكون ذات اربعة وجوه اذا امكن وذلك ليعلم الوقت بفضلها جميع سكان الموصل كائنة ما كانت الجهة التي هم فيها » . فاحيب الرجل الى طلبه ووجه رئيس الدير رسالة شكر الى وزير الخارجية الفرنسية تحمل تاريخ اليوم الثامن والعشرين من شهر شباط لعام ١٨٨١ . وكان اهم ما جاء فيها العبارات التالية : « ان هذه التحفة الناطقة باللفظ والكرم التي نزلت على نفوسنا من يدكم الكريمة بدور وساطة سوف تعلن بصورة فعالة للغاية لانظار الاهالي الذين يحفون بنا من كل جانب عن الرعاية السامية التي شتمتمونا بها . وهي وسيلة للاعراب عن هذه الرعاية التي لا تستطيع وصفها أفصح الخطب وابلغها . ان هذه الساعة الدفاقة حين تسمع صوتها الأذان لتذكر سكان مدينتنا حتى بعد اجيال واجيال متلاحقة بأن فرنسا تحب دائماً نشر مبررات جودها وسخائها التي تشمل بها ابناءها كما تشمل بها كافة شعوب الشرق سواء بسواء » .

القسم العاشر

الهيئة القنصلية

ان الدول الوحيدة التي كان لها ممثلون في بغداد وفي الموصل خلال الشطر الاعظم من القرن الماضي كانت فرنسا وبريطانيا العظمى وفارس . وقد سبق ان اتحت لي الفرصة للتحدث عن المنازعات التي كان يطير شرارها بين قناصلنا وبين زملائهم البريطانيين الذين كانوا محظوظين اكثر من قناصلنا على الصعيد المالي ، والذين كان قناصلنا يراقبون حركاتهم وسكناتهم بريية وحذر . ومع ذلك فقد تحسنت العلاقات بين الطرفين خلال السنوات الاخيرة من القرن المنصرم حتى اصبحت روابط ودية منذ عقد الوفاق الودي .

اما قناصل فارس فكان يهتم اكثر ما يهتم شؤون مواطنيهم ومقدراتهم بصورة خاصة . وهؤلاء المواطنون كانوا يقيمون في العراق باعداد كبيرة كما كان هؤلاء القناصل معينين برعاية مصالح الطائفة الشيعية بصورة عامة . وكان بعضهم قد اخذوا فكرة عجيبة غريبة عن مهمتهم ، مستنداً في حكمي هذا على ما كتبه في العشرين من كانون الثاني ١٨٤٧ البارون دي فيمار عن زميله الذي اورده الكوليرا حتفه . قال : « لقد ظهر من التحري الذي جرى في منزله ومن جرد امواله انه قد اوعز باختطاف عدة نساء تركيات واحالهن الى جوار يستمتع بجمال بعضهن في بغداد ويرسل بعضهن الى فارس . وقد اعتقل والي بغداد صهر القنصل الراحل ووضعه تحت الرقابة حتى عادت الى بغداد احدى هؤلاء الضحايا وكانت قد ارسلت الى فارس . وبعد وصولها سلمت الى عائلتها . وقد ثار غبار نزاع وجدال حول موضوع مختلف المواد الثمينة التي استلبها المتوفى سواء من المسافرين الفرس أو من جوامع كربلاء

ومساجدها . وكان سلوك هذا القنصل الشاذ الغريب الاطوار معروفا منذ عهد بعيد لدى رؤسائه في طهران . ولكن يبدو ان حكومة الشاه كانت تكره احلال قنصل آخر محله قبل التسوية النهائية للمشاكل التركية الفارسية » .

وفي عام ١٨٨٣ ارتأت روسيا ان من المفيد لها ان تقيم لنفسها قنصلية في العراق فبادرت الى تعيين قنصل يمثلها في الموصل احباطا لدسائس الانكليز واحيلهم في هذه المناطق التي كانت روسيا تشعر بقلق من نشاط هؤلاء في ربوعها . ولكن هذا القنصل اثبت انه رجل ارعن احمق في علاقاته مع السلطات المحلية التي سرعان ما ساورتها الشكوك من انهماك هذا القنصل في أعمال الجاسوسية . ويبدو ان قنصلنا مسيو سيوفى يشاطر السلطات المحلية هذا الراى فقد كتب يقول : « لقد وصل القنصل الروسي يصحبه شاب يافع قدمه بوصفه سكرتيره . ولكنه في الحقيقة والواقع لم يكن سكرتيره بل كان ضابط هندسة له هدف اعترف به هو التقاط صور فوتوغرافية ورسم لوحات زيتية . ورأيت لديه خريطة جغرافية للقفقاس ولارمينيا وبلاد ما بين النهرين . ولكن الامر الذي ادهشني واذهلني لدى امعاني النظر في هذه الخريطة هو ان الجزأين الاولين منها كانا يحتويان على تأشيرات جغرافية في غاية الاسراف شأنهما كشأن كافة الاشياء من هذا النوع اللهم الا بلاد ما بين النهرين التي كان معظمها خالياً من هذه التأشيرات ولم تكن مؤشرة الا بالنهرين العظيمين اللذين تنداح بينهما هذه البلاد المسماة باسم هذين النهرين . واذا استفسرت عن علة هذا النقص الخطير اجابني القنصل انه ما زال يجهل هذه البلاد . فلم يبد لنفسه هذا التفسير مقنعاً بالمره . لان الروس بالغا ما بلغ جهلهم ومهما كانت درجة تأخرهم وتخلفهم في المسائل الجغرافية فلا بد أنهم يعرفون على الاقل مواضع النقاط الرئيسية في بلاد

عظيمة كبلاد ما بين النهرين . اذن فيحق لنا ان نفترض ان هذه الكثرة من الوكلاء الروس لها مهام مختلفة . فبعض هؤلاء الوكلاء مكلفون بدراسة القطر وطرق المواصلات فيه وبعضهم مهمتهم القيام بالاعمال الطبوغرافية في هذا الجزء التابع لتركيا .

اما الدولة الاخرى التي لم تهتم بشؤون العراق الامؤخراً فقد كانت المانيا . فان فصلها الأول لم يعين في بغداد الا في مطلع هذا القرن في اعقاب قضية عجيبة تحزب لها ممثلنا مسيو پونيون بتطرف وتهور لسبب واحد ، كما يبدو ، لم يكن سوى عواطفه الكارهة للدين ولرجال الدين . فمنذ بضع سنوات القى عصا الترحال في عاصمة الخلفاء شاب الماني يافع يدعى (ريتشارز) وهو باذخ الغنى ، متعطل ، سيد الموقف في حفلات الاستقبال التي كانت تستهوى افئدة الجالية الأوروبية الصغيرة التي اصبح هذا الفتى الالمانى مطمح انظارها .

وفي احد الايام زعم غلام من تلاميذ آبائنا الكرمليين انه وقع ضحية نزوات (ريتشارز) الالمانى الجنسية التي رفعت عائلته ضدها الدعوى . واثارت هذه القضية انفجالات عنيفة في المدينة التي انقسمت الى معسكرين . اما قصلنا الذي وقعت له مشادات ومشاجرات مع مواطنينا من رجال الدين في عدة مناسبات فقد انحاز انحيازاً حاداً الى جانب الشاب الالمانى الذي لم يكن مع ذلك عن شملتهم حمايتنا . فكتب الى باريس رسالة في اثر رسالة ليرهن على براءة صاحبه . واتنا اذا عمدنا الى تصديق ما يقوله ريتشارز فانه يكون قد وقع ضحية لمؤامرة سافلة حاك خيوطها للايقاع به الآباء الكراملة الذين ينعون عليه عدم الامتناع عن تناول اللحم والدسم (عدم الصيام) يوم الجمعة ، واقامته حفلات راقصة اثناء الصوم الكبير . اما

الضحية المزعومة فيتابع مسيو پونيون حديثه عنها قائلاً : « لقد اثبت التحقيق والفحص الطيبان ان هذا الغلام الكرمللي المضحك قد سبقت استباحته بافراط بحيث لم يعد في حيز الامكان اثبات وقوع الاعتداء الاخير على شرفه أو نفيه » . (١)

واخيراً لم يطل امد التحقيق ولم ينته الى شيء وظهرت الحكومة الالمانية بمظهر المستاء من هذا التشهير الذي احاط هذه المشكلة فارادت البرهنة عملياً على اقتناعها ببراءة احد رعاياها فعينت ريتشارز قسلاً لها في بغداد . فطار من الفرخ بهذا التعيين زميله الفرنسي .

ولكن القنصل الفرنسي كان مخطئاً في حسابانه احراز الانتصار ، فان السيد ريتشارز لم تكن سمعته فوق الشبهات اذ ما ان اندلعت قضية (اولانبورغ) (٢) حتى كان احد ضحاياها إذ عزل من منصبه واضطر الى مغادرة القطر . ويقص علينا خلف مسيو پونيون تفاصيل الواقعة ويبدى دهشته من تحمس سلفه الحاد وجعجعته لغرض اثبات براءة الفتى الالمانى فيكتب : « اي دافع دفع هذا الشاب الثري الانيق سليل الاسرة النبيلة للمجيء الى بغداد ان لم يكن ذلك لاحتمال الاستفادة من الفرص التي تتيحها له مدينة عامورة الجديدة ؟ » .

(١) الرسالة المؤرخة في ٦ نيسان ١٨٩٥ .
(٢) Eulenburg (Philippe) سياسي وكاتب ألماني ، ولد عام ١٨٤٧ ، وتوفي عام ١٩٢١ وقد ساهم في الحرب الفرنسية البروسية ، ودخل عام ١٨٧٧ باب الدبلوماسية .
وأختتم حياته كسفير في فيينا (١٨٩٤-١٩٠٢) . وفي عام ١٩٠٧ ، عقب اكتشاف فضائح Maximilien Harden غادر البلاط الالمانى (المترجم) .

القسم الحادي عشر

التنقيب عن الآثار

إن علم الآثار القديمة الفرنسي مدين بأفدح الديون الى ممثلينا القنصلين في العراق الا وهم : (بوتان) و (بلاس) و (سارزيك) الذين كانوا في الواقع رواد هذا العلم في بلاد ما بين النهرين . ولم يكافأ الاول ولا الثاني وذلك لان الحكومة اذا كانت قد اعانتها على الصعيد المالي في اعمالها فانها لم يسلمها مع ذلك من غضب الحكومة وسخطها عليهما . وعلى العكس من ذلك اذا كانت قد حدثت لسارزيك كما سنرى مشادات ومنازعات خطيرة مع قنصلنا في بغداد مسيو پونيون فان سارزيك هذا كان مسانداً على الدوام من قبل وزارة المعارف العمومية حيث كان له في دوائرها اصدقاء متفدون .

من المعروف لدى كثير من المعنيين بشؤون الآثار القديمة ان بوتان الذي عين عام ١٨٤١ معتمداً قنصلياً في الموصل قد اكتشف خلال السنة التالية : لتعيينه ، قصر سرجون في خورصا باد . ولكنني والاسف الشديد يأخذ بخناق لم أقع في ارشفيات وزارة الخارجية الفرنسية على اي رسالة منه تتعلق بتتقيقاته وحفرياتة . وان الوثيقتين الوحيدتين الخاصتين بمهمته الأثرية هما من جهة ، عبارة عن رسالة تحمل تاريخ اليوم الخامس والعشرين من شهر آب لعام ١٨٤٣ معلمة اياه برحيل الرسام (فلاندان) الى الموصل وهو المكلف بوضع التصاميم والرسوم للقطع الأثرية المكتشفة ، ومن الجهة الأخرى ، رسالة من البارون دي فيمار قنصلنا العام في بغداد مؤرخة في الخامس والعشرين من كانون الثاني لعام ١٨٤٦ وهي عبارة عن قائمة حساب

بتكاليف نقل الآثار الفنية الى باريس . ويجب ان نلاحظ ان البارون
دى فيمار لم تكن له سوى فكرة شديدة الغموض عن طبوغرافية اعمال
التنقيب . والشاهد على ذلك انه يعزو الى نينوى ما لا يمكن ان يصدر
الا عن خورصabad . ذلك لان بوتّا كان قد ترك تنقيباته في موقع العاصمة
الأشورية دون العثور على شيء جدير بالاهتمام .

واليكم الان ما كتبه مسيو دى فيمار : (ان الأرمات (الأكلاك) المكلفة
بنقل منحوتات نينوى لم يظهر لها اثر في البصرة حتى اليوم الثامن من
كانون الثاني * . وان الكتل القديمة المكتشفة في نينوى ما زالت حتى هذه
اللحظة قابعة في بغداد . اما الرسائل المختلفة التي كان لي شرف توجيهها الى
معالي وزير الداخلية مشيراً عليه بضرورة ارسال الاموال اللازمة والوامر
الضرورية لشحن هذه التحف الى البصرة خلال الموسم الملائم لهذه الملاحظة
الطويلة الشاقة فانها لم تحظ بأي جواب حتى يومنا هذا) . وأخيراً شحنت
القطع الى بغداد في اليوم الثامن والعشرين من شهر آذار لعام ١٨٣٦ .
وقد وصف هذا الشحن بكونه (عملية شاقة نظراً لنوعية السفن العربية
الردئية المستعملة ولقلة العمال ولعدم وجود الالات) ، فلم تصل هذه
الاشياء الى فرنسا الا في مطلع عام ١٨٤٧ حيث اثارت الاعجاب العام .
ولكن بوتّا كان قد غادر الموصل في تلك الاونة .

وبعد ذلك باسابيع معدودات استأنفت هذه الاعمال من قبل احد
اخلافه وهو فيكتور بلاس وقد اعترضت سبيل هذا الأثاري صعوبات كبيرة .

(*) عندما شرع (بوتّا) بالتنقيب في خورصabad ، كان يظن أنه ينقب في جزء من
اطلال نينوى ، ولم يكشف عن اسم خورصabad ، (دور شروكين القديمة) عاصمة
سرجون الا بعد مدة . وهنا يشير الى حادثة غرق مجموعة من الاثار المكتشفة في مكان
تريب من القرنة في ٢١-٥-١٨٥٥ .

ذلك لان البلاد كانت تعاني في تلك الفترات من هزات وقلقل خطيرة . وكان يتحتم عليه حماية لعماله ان يبرم اتفاقيات مع العشائر المجاورة ليشتري حماية هؤلاء العمال ، وهو الامر الذي اعتذر عنه في الثامن من تشرين الثاني عام ١٨٥٢ بالعبارات التالية : « انها لعادة يتبعها هنا التجار المرغمون على تعبئة القوافل وارسالها . واؤمل ان يحظى هذا التصرف بموافقتكم وتأييدكم ، وهو سلوك فرضته فرضاً عليّ القلاقل والاضطرابات في هذا القطر العجيب الذي (اسكنه) . » . وعلاوة على ذلك فقد اضطر في احيان كثيرة الى ايقاف اعمال التنقيبات لنفاد الاموال . ففي عام ١٨٥٤ مثلاً ارسل الى زميله في بغداد كيميالة على باريس لم يستطع صرفها في الموصل بسبب اختلال جبل الامن في مطالع حرب القرم ، وقد رجا قنصلنا العام ان يشحن اليه بعض الاموال التي هو في أمس الحاجة اليها .

واستعذبت باريس طعم هذه النفائس التي كان قد اتحفها بها بوتنا فطلبت من فيكتور پلاس عدداً من النقوش البارزة ومن التماثيل التي يخلق استخراجها ونقلها في تلك الحقبة مشاكل ليس الى حلها تقريباً من سبيل . وكان بوتنا قد لجأ في زمانه الى تقطيع التماثيل الى قطع صغيرة نسبياً لاستطاعة ارسالها الى باريس . اما پلاس فيقول لنا (سيرام) في كتابه المعنون . « مغامرة التنقيبات الاثرية » انه (لم يجزىء الكتل الكبيرة ولكنه استعمل آلة صنعت خصيصاً لهذا الغرض . وكان يسحبها المئات من سكان البلاد ، فقل على هذه الشاكلة عدة ثيران مجنحة بلغ وزن بعضها ٣٢ طناً) . ولا بد اننا الان تصور المشاكل التي كانت تثيرها قضية اجور العمال والاحتفاظ باليد العاملة .

وحين تصل هذه الكتل على هذا المنوال الى شواطئ دجلة كانت تحمل

فتوضع على متون الاكلاك . هذه الارماث التي سبق ان تحدثت عنها . وهي التي يقع على كاهلها عبء نقل هذه القطع الى البصرة حيث تنقل من هناك على ظهور سفن من البحرية الوطنية . ولكن الحوادث كانت كثيرة . ففي عهد بوتا غرقت اكلاك عديدة وغاصت حمولتها الى قعر النهر . أما في عام ١٨٥٦ فقد وقعت الطامة الكبرى . فمن مجموع مائتين وخمس وثلاثين قطعة فنية مستخرجة من قصر خورصا باد نجت ست وعشرون قطعة وصلت الى البصرة . وقد عثرت في ارشيفات السفارة في بغداد على محضر غرق السفينة . وهذا المحضر ما يزال موجوداً في السفارة . وقد كان سبب هذه النكبة خرق بنود الاتفاق وسوء النية . فان هذا الموكب النهري قد هوجم من قبل سكان البلاد على بعد بضعة كيلو مترات من شمال القرنة في محل اختلاط دجلة بالفرات . فبالرغم من التعليمات المشددة القاطعة التي زود بها ربان الاكلاك فانه ضرب بهذه التوصيات عرض الحائط وحمل اكلاكه بالبضائع الرخيصة التي اسالت لعاب سكان الشواطىء واستفزت اطماعهم . فهاجم هؤلاء هذا الاسطول المنفوخ وبعجوا اجربة الاكلاك ونهبوا كل ما عليه من متاع لم يقدر له الغرق وسلبوا المسافرين . أما الفرنسيون الذين رافقوا المركب فقد وجدوا على الساحل عراة كأنهم ديدان . واضطروا الى قطع المسافة مشياً على الاقدام حتى وصلوا الى القرنة حيث اخطروا السفن الفرنسية التي كانت بانتظارهم في البصرة . فسارت هذه المراكب صعدا في النهر حتى بلغت موضع الغرق . واستطاع ملاحوها الحصول على محتويات لكن كانا قد جناحوا الى الساحل ولكن محتويات الاكلاك الاخرى كانت قد انبطحت في قاع النهر . وقد غاصت التماثيل في الاوحال . ولعدم وجود وسائل رفع كافية اضطر هؤلاء الملاحون الى ترك القطع الخالدة تغوص في

الرمال الأسنة الى يوم الدين . وقد تأثر مدير الآثار العراقية * عميق التأثير وظهر بالغ الاهتمام حين اطلع على هذه الوثيقة التي اربته اياها . لان محضر قضية الغرق يعين بمنتهى الدقة محل رقاد هذا الكنز الفريد . (١)

وقد تمنى ان يوفق الى ارسال حملة للبحث عن هذه المفقودات بل سألني عن امكانية مساهمة مواطننا (كوستو) وبعض زملائه المعنيين باستخراج الآثار القديمة من تحت المياه في هذه المحاولة . ولكن من سوء الحظ ان يصادف وقوع هذه المحاولة اليائسة في خريف عام ١٩٥٦ . ذلك لان العلاقات الدبلوماسية انقطعت بعد ذلك بايام معدودات بين فرنسا والعراق . ولا ادري ان كانت قد اعقبت هذه المفاتحة بالانقاذ محاولة عملية جديدة .

اما القنصل الاتاري الفرنسي الاخير في العراق فقد كان مسيو دي سارزيك وهو المعتمد القنصلي في البصرة من عام ١٨٧٥ حتى عام ١٨٨٤ ثم عين قنصلاً في بغداد التي مكث في ربوعها من سنة ١٨٨٤ حتى سنة ١٨٨٧ . ومنذ عام ١٨٧٧ اولع مواطننا بموضع (تلو) الواقع في بلاد ما بين النهرين السفلى في محل المدينة السومرية العتيقة لكش . فعمل في استطاق آثارها حتى ادركته منيته في عام ١٩٠٠ .

ومنذ البداية واجه اعماله بوصفه عالماً اثارياً وادار مهامه الرسمية بحزم

(*) مدير الآثار العام في هذه الفترة كان المرحوم الدكتور ناجي الاصيل (س١)

(١) كتب القصصي الفرنسي جوستاف فلوير في كتابه الموسوم (رحلة الى الشرق) الصادر في عام ١٨٥٠ والذي دعاه مسيو بوتا الى تناول الطعام معه يوم كان قنصلاً في القدس مايل : (ان بوتا انسان متخرب وهو رجل الخرائب في مدينة الخرائب . انه يفكر بكل شيء ويبدو انه يكره كل شيء عدا الاموات . انه يحزن الى العصر الوسيط كل الحنين ويعجب بمونسنور دي ميستر . وهو يتعلم الان العزف على البيانو ويعترف كل الحنين ويعجب بمونسنور دي ميستر . وهو يتعلم الان العزف على البيانو ويعترف بانه ليس حفار قبور (كذا) . انها فترة من حياة هذا الرجل وهي فترة حافلة بالمحاولات وحياته نسيج عجيب . فهو طبيب وعالم طبيعي وقنصل وعالم آثار . وقد جرب محاولات الاخير في الآثار وتعلق بها ولا يهوى سواها . فيا له في الختام من شخص مسكين) ا١

(المؤلف)

وثبات . وكان هذا الموقف هو السبب الاول للمشادات التي وقعت له مع مسيو پونيون القنصل في بغداد ثم خلفه . فقد كان پونيون معنياً بشؤون الآثار القديمة لانه كان هو نفسه خلال ثلاث سنوات مكلفاً بالقاء محاضرات عن اللغة الاشورية في مدرسة الدراسات العليا قبل ان يدخل في السلك القنصلي . ومن جهة اخرى كانت الحكومة قد كلفته بتسوية نفقات بعثة دى سارزيك . وهذا التكليف جعله يتخيل ان له بعض الحق في الاشراف على الاعمال الجارية ، و خلاصة الحكاية ان الرجلين سرعان ما اصبحا عدوين لدودين لبعضهما ، بحيث ان مراسلات مسيو پونيون بدت تعج بالشكاوى والقدح والطعن ضد سلفه .

ولو رجعنا الى اصول الموضوع لتبدي لنا أن مسيو پونيون قد ادرك اهمية موضع (تلولو) . افلم يكتب في اليوم السادس من مايس ١٨٨٧ ما يلي : « ان ما يميز تميزاً خاصاً موقع تلولو ويخلع على مستكشفات مسيو دى سارزيك اهمية استثنائية هو ان هذه البقعة تضم في حناياها خرائب مدينة قديمة دمرت منذ عهد سحيق في القدم للغاية ولم يكتب لها ان يعاد تشييدها من جديد ولا ان تتناولها يد الترميم . ولذلك فاذا كانت مشيدات اقدم الاحقاب قد انطمست لتحل محلها منشآت حديثة نسبياً كما حدث في بابل والوركاء وفي كل البقاع التي استكشفتها في بلاد ما بين النهرين فان الامر يختلف بالنسبة لموضع تلولو حيث يخيل لنا ان الحياة قد انقطع تيارها بصورة فجائية هناك . فنحن واجدون خرائب ذات طابع غارق في ظلمات القدم . ولكنه طابع خاص ليس كمشله طابع بحيث ان الاهتمام الذي يثيره هو اهتمام بالغ العظم . ولو سمح لي باستعمال موازنة لعلها تبدو متكلفة لقلت بان موقع (تلولو) بالنسبة لبلاد ما بين النهرين

يوازي موقع (پومبي) بالنسبة لايطاليا ؟ » .

ولكن هذا الوفاق لم يدم طويلاً . فقد ساد سوء التفاهم بين مسيو دي سارزيك وبين الموظف التركي المكلف بمراقبة اعمال الحفر والتنقيب . وكان هذا الموظف يدعى بدرى بيك . وقد شكاه الى مسيو پونيون وطالب بتسديد مبلغ زعم ان العالم الاثاري كان قد اقترضه منه دون ان يعلم بذلك الاقتراض قنصلنا . فما كان من هذا الا ان اسرع باخبار الوزارة بالواقعة التي ضمنها الرسالة التالية المؤرخة في الخامس من كانون الثاني لعام ١٨٩٠ والتي ظهر فيها ارتياحه بل سروره المفرط من ادراج كافة الاتقادات التي وجهها بدري بيك الى دي سارزيك ، واليكم نص الرسالة الجارحة :

« لقد اكد بدري بيك ان مسيو دي سارزيك لم يجلب من فرنسا اي اداة . واضطر الى ان لا يستعمل سوى خمس مساح وسبعة معاول وتسع مجارف تركت من قبله لدى احد سكان القطر اثناء تنقيباته الاولى منذ عشر سنوات . واضاف ان مقابض هذه الادوات قد تهرات . ولم تكن في حوزة مسيو دي سارزيك نقود تركية لانه لم يحمل سوى النقود لشراء الخشب بهذه النقود . وادعى اخيراً انه حين ذهب لتوديع مسيو دي سارزيك في يوم رحيله عن البصرة على ظهر سفينة كانت تهم برفع مرساتها ايذاناً بالرحيل فان صاحبنا قد صرف بدري بيك شبه مطرود واحاله الى لأسدد عنه دينه في بغداد . وقد بدت لي هذه الحكاية وكأنها اسطورة من اساطير الجن إذ خيل الي ان من المستحيل ان عائلة دي سارزيك المكلفة بمهمة خطيرة كهذه او التي تتظاهر بخطورة هذه المهمة (كذا) لم تكن تحمل معها اية اداة (٢) كما خيل الي كذلك ان من المستحيل على مسيو دي سارزيك

(٢) كان يرافق مسيو دي سارزيك في موقع تملو زوجته ونجله فاستاء مسيو پونيون من هذه الرفقة أشد الاستياء .
(المؤلف)

وهو قنصل فرنسا ان يتفادى خسران بضعة قروش في سبيل مبادلة العملة الذهبية الفرنسية بعملة تركية فيلجأ الى اقتراض تسعة وستين فرنكا من تركي بانس يتصور جوعاً والى عدم رد المبلغ اليه في اقرب وقت ممكن . وأخيراً يخيل الي ان ما هو اشد استحالة من هذا وذاك ان يحاول مسيو دى سارزيك التخفف من الاعمال العلمية التي ارهقته فيلهو باللعب مع بدري بيك على ظهر الباخرة التي ستغادر به البصرة للعبة الكلاسيكية التي لعبها دون جوان مع دائئيه فيعرضني انا في حالة ما لو لم اكن على علم مسبق بالامر الى لعب نفس الدور الذي لعبه (سجاناريل) على مسرح هذه التمثيلية ذاتها « (٣) والواقع ان كل شيء قد جرى طبق ادعاء بدري بيك وقد ايدته في ذلك مسيو دى سارزيك ضمن رسالة جافة كل الجفاف . وقد وافق بالاضافة الى ذلك على تسديد دين بدري بيك من جيبه الخاص وهذا ما لم يكن بمستطاع القنصل ان يفعله لو اراد تسديده من مخصصات الخدمة ما دام هذا الدين من الديون الشخصية . ومن هذا ندرك ان صاحبنا (سجاناريل) قد اغتاض واعلن لباريس انه لن يتحمل بعد اليوم نفقات تمويل البعثة فكتب يقول في الرسالة ذاتها : « لقد ارغمت ارغاماً في عام ١٨٨٨ نتيجة لسيان مسيو دى سارزيك ان اُدفع مبلغ سبعمائة فرنك اخرى لبدري بيك . وهذه الفرنكات السبعمائة قد نزلت بطبيعة الحال من مخصصات البعثة . فأني عمل كان يتورع عن اتياه مسيو دى سارزيك لو كان في حوزته عام ١٨٨٨ مثلاً سبعمائة فرنك اخرى ؟ كان في هذه الحالة سيضيف الى المساحى الخمس والمعاول السبعة والمجارف التسع التي استعملها خمس عشرة اداة اخرى تكلف كل اداة عشرة فرنكات فيكون مجموع تكليف هذه الادوات مائة

(٣) راجع دونجوان معرحة مولييد - (المترجم)

وخمسين فرنكا . وكان بوسعه أخيراً أن يودع هذه الأدوات الى خمسة عشر عاملاً اضافيين . وهذا الاجراء لو حدث لما كان كلف سوى خمسمائة وعشرة فرنكات لاربعة وثلاثين يوماً من اعمال الحفر نظراً لرخص اليد العاملة الخرافي في منطقة تللو لان مياومة العامل هناك اقل من فرنك واحد . ولو انه ضاعف عدد الأدوات المستعملة في اعمال التنقيب لربح نصف الوقت الذي صرفه ولقام بعمل سنتين اثنتين خلال سنة واحدة .

ولانتهت نتيجة لذلك عمليات الحفر قبل عام من انتهائها الواقعي ولامثلاً قلب مسيو دى سارزيك بالفرح لعودته قبل سنة من عودته الى الخدمة الفعلية . ولاحرز متحف اللوفر هذه الكنوز الاثرية الثمينة التي حملتها اليه بعثة مسيو دى سارزيك قبل سنة من احرازه الفعلي لها .

فكان لهذه الشقشقات اللسانية المفرطة في الغلو وقع سيء لدى باريس حيث كان لمسيو دى سارزيك اصدقاء اقوياء . وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان لعام ١٨٩٠ طارت برقية من باريس الى قنصلنا ترجوه بلهجة قاسية الا يتداخل بعد الان في بشؤون سير اعمال التنقيب وان تقتصر مهمته على اخبارها بالمحاولات التي يحتمل ان تقع من قبل الاجانب لتفادي حدوثها .

فطغنت هذه البرقية قنصلنا في الصميم . فاغتاظ واجاب عليها في سورة غضبه ضحى اليوم التالي بما يلي : « ان مجرد كون القنصلية مكلفة بدفع اجور الوكلاء العثمانيين (الذين كانوا يراقبون اعمال الحفر) يعطيها الى درجة ما الحق في تصور أن مراقبة أعمال عائلة دى سارزيك تقع ضمن صلاحيتها . وبالتالي فانهم يزعمون ان شكواهم يجب ان تعرض علي . تلك الشكاوى التي يوسفني ان اقول ان بعضها قد اخجلني وحرر وجهي وجبهتي لشدة ما

احدث لدي من احساس مؤلة مخجلة . . . ولما لم يكن لي ان احكم على
اعمال عائلة دى سارزنيك فمن قلة الذوق ان اتوسع في هذا الموضوع
الديق . وسأكتفي بالقول بأن هذا الراي بالغاً ما بلغت درجة خطأه لا
يقلل من اعتزازي به وبأنه يحدث تأثيراً سيئاً في هذا القطر . فيكون اذن
من المرغوب فيه الا يكون للقنصلية اي علاقة او رابطة بعد اليوم ببعثة تللو
والا تكلف بتسوية حساب الوكلاء العثمانيين مطلقاً . ذلك لانني سأستطيع
حينئذ دون ان ابدو لهم متهماً بالتواطؤ مع البعثة ان اجاب على جميع
الشكاوى التي يحتمل ان يوجهوها اليّ وان اقول ان عمليات عائلة دى
سارزنيك هي عمليات علمية (مهما دار حولها من الشبهات) وان القناصل
لا شأن لهم البتة بقضايا من هذه الطبيعة . وبالتالي لن يتحتم على ان ادقق
واحقق عما اذا كانت شكاواهم قائمة على اساس يركن اليه او غير قائمة
وانهم احرار في التوجه مباشرة الى السيد وزير المعارف العمومية اذا راقهم
هذا التوجه « . واخيراً يشير الى احتمال تجاوز بعثة اجنبية على موقع تللو
بالقيام بأعمال الحفر فيضيف الى ذلك مسيو يونيون باستعلاء واهتياج قائلاً :
« انني لا اتوقع ان ارى احداً يدفعه الاهتمام الى القيام بحفريات في موقع
تللو في حين انهم يستطيعون ان يجدوا في كل خطوة يخطونها في بلاد ما
بين النهرين خرائب لم تلمسها يد المستكشفين وهي اعظم من خرائب تللو
ثلاثين مرة واهميتها تضاهي اهمية خرائب تللو من ناحية علم الآثار ان لم
تفققها اهمية « .

وهكذا نرى قنصلنا وهو في ذروة غضبه قد نسي ما كان قد كتبه هو
نفسه قبل ثلاث سنوات خلون .

فاستقبلت الوزارة هذه البرقية استقبالا سيئاً كل السوء ووجهت توبيخاً

شديد اللهجة الى موقعها ، فكتب الوزير في اليوم الثامن من حزيران يقول :
« يؤسفني كل الاسف ان اقرر ان مراسلاتك تفصح عن سوء الطوية التي
تنطوي عليها تجاه مسيو دى سارزيك بصورة تحيزية . وعلى العموم ارى
تصرفاتك تناقض كل المناقضة التوصيات التي وجهتها اليك في مد يد العون
الى البعثة التي كانت اعمالها محققة للأمال التي عقدتها عليها وزارة المعارف
العمومية » .

فلم يعتبر مسيو پونيون نفسه مهوراً ابدا بل رأى من الخير له ان
يبرر تصرفاته . وكان ذلك عن طريق الرسالة التالية المؤرخة في اليوم السابع
من تموز : « لقد تفضل معاليكم فجعلني اطلع على الاستياء الذي
شمله بعد قراءة تقاريري . ولا يسعني إلا ان اقول بأن من الواجب على كل
معتمد ان يحيي راسه بخضوع عسكري كل العسكري امام الاهانات التي
تنصب على رأسه هذا . وعلى ذلك فاني ، غير محاول ان ابرر سلوكي بأي
شكل من الاشكال ، ارجو من معاليكم ان تفضلوا بقبول التعبير عن شعوري
بالالم المخلص الذي احده في نفسي واقعة توجيه توبيخ لي من جانبكم ...
انني اعلم ان تقاريري قد اغاظت معاليكم . وهذه الاغاظه وحدها كافية لجعلي
اتأسف اعمق التأسف على كتابتي لهذه التقارير او على الاقل لانني لم احسن
التعبير عن الافكار التي اعربت عنها خلالها في صيغة لعلها كانت تقع لدى
معاليكم موقفاً حسناً ... ولما كان التقرير الذي عرضت فيه الاسباب التي
تجعل من المرغوب فيه ، حسبما تصورت ، قيام فصل تام بين الاعمال الحسابية
للقنصلية وبين حسابات البعثة قد اغاظ معاليكم واورثني الحزن العميق فاني
لعدم استطاعتي الادلاء بججج اكثر جدية بعد هذا اليوم لانني ممنوع من
مصارحة معاليكم سأكتفي باعلام وزارتك مستنداً على ما لدي من مستمسكات

بأن تسوية حسابات الوكلاء الثمانية قد كلفت القنصلية مبلغاً لا بأس
بجسامته صرفت اجزائه على البرقيات فحدث تعقيداً كبيراً في حسابات
القنصلية لان السلف التي امرت انا بدفعها في عام ١٨٨٨ لحساب وزارة
المعارف العمومية لم تسدد اليّ حتى يومنا هذا ولن يمكن تسديدها استناداً
الى ما كتبه الي صراني الا بموجب قانون ينتظر في هذه اللحظة موافقة
مجلس الشيوخ عليه .

فلم تر باريس جدوى في وجوب متابعة الجدل في الموضوع ، ولكن
يبدو ان مسيو پونيون قد اعفي حينئذ من مهام تمويل البعثة . فظل لائئاً
بالصمت ولا صمت ابي الهول خلال اربع سنوات متواليات لم يتحدث اثناءها
عن حسابات حفريات تلو على الاطلاق . ومع ذلك فقد اشار اليها اشارة
شفافة في رسالته له مؤرخة في الثاني من ميس ١٨٩٤ ماساً ماساً رفيقاً بها
عالملاً آخراً في العراق الا وهو الاب المحترم (شيل) فكتب يقول : « لقد
استطاع الاب شيل ان يقوم بحفريات لا تكاد تقطع في موضع (سيار) *
منذ الثالث عشر من كانون الثاني حتى الثالث والعشرين من نيسان وهو
اليوم الذي من ضمن المدة مستخدماً في كل يوم خمسين عاملاً وعشر مساح
وخمسة معاول وخمس وثلاثين سلة .

ان الاب المحترم شيل ليس هو كما نرى من اولئك الذين يبحثون عن
ادامة اللذة الى ما لا نهاية . والذين يدارون الخربة التي يستغلونها كالفارس
الذي يداري دابته التي يسره ان يبدو راكبها . لقد عمل في ثلاثة اشهر
اكثر مما يعمله الاخرون في ثلاث سنوات . ومع ذلك فانه لم ينفق الا
مبلغاً ضئيلاً قدره ثلاثة آلاف فرنك . . . لقد عثر على عدة مئات من

(*) هو الموقع المعروف الان ب (ابو حبة) الواقع قرب ناحية اليوسفية . (س١٠)

العقود التي يرقى بها الزمن الى عهد حمورابي . ووجد بعض القطع التي تتضمن مقاطع كلمات . وصادف بعض الادعية والصلوات والانشيد الدينية ، ووقع على اوعية خزفية على هيئة حيوانات . واذا لم يكن قد عثر على نصوص صادرة عن ملوك جدد ولا على نفائس موغلة في اعماق التاريخ فاننا لانستطيع ان نشكو منه دون خدش شعور العدالة والانصاف . ولا ادري يا سيادة الوزير ، ما اذا كانت الحكومة التركية ستفيد مجدداً من من حسن نية الاب شيل وشفاء سريرته . وان كان ما اعلمه من علاقاتي الشخصية هو انه لما كان الاب شيل قد ارتكب الخطيئة الكبرى بتخرجه في مدرسة القاهرة واقترف علاوة على ذلك الجناية التي هي اكبر من الخطيئة الاولى بكونه خيراً متخصصاً لا يحتاج الى معونات مضحكة تدرج على اصحابها الفوائد فان مساعي كبيرة ستبذل ضده ، وان ما يحز النفس قوله هو أن بؤرة هذه الدسائس ليست كائنة في القسطنطينية .

ولابد ان كره مسيو پونيون لمسيو دى سارزيك كان من الحدة في درجة وجد نفسه معها مرغماً على مدح أحد رجال الدين وهو الاب شيل نكاية بمسيو دى سارزيك في حين ان مقتته للدين ورجاله كان بادياً في جميع مراسلاته .

وبعد ذلك بشهر واحد يبدو ان المصادقة وحدها سمحت لقنصلنا بأمر يقطع الصمت الذي فرضه على نفسه دون ان يخشى زجراً او تعنيفاً من باريس . فقد جاء منقبون سريون الى تلو وباشروا باعمال الحفر ووضعوا اليد على مجموعة من الرقم الطينية التي بيعت بصورة علنية في بغداد . فخطر مسيو پونيون بهذه الحادثة باريس بريقة وهياً بعد ذلك تفاصيل دقيقة عن هذه السرقات برسالة مؤرخة في الحادي عشر من تشرين الاول ١٨٩٤

فكتب يقول : « يبدو ان هذه التنقيبات هائلة . ويخيل اليّ ان عواقبها فوق ما يتصور المتصورون . بحيث ان مقتي لهذا الموضوع بالغا ما بلغ من التفاهم لا يحول بيني وبين الاعتقاد بضرورة توجيه تقرير الى معاليكم والا كنت مسؤولاً او مشاركاً في المسؤولية .

انه ليستحيل عليّ ، يا سيادة الوزير ، أن اشير الى عدد اللوحات الاشورية * التي استخرجت من تلو منذ ثلاثة اشهر . اذ يشيع القول في المدينة بان المستخرج من هذه البدائع بلغ خمسين الف قطعة ... قد يبدو هذا الرقم خيالياً للوهلة الاولى ولكنني لا اراه بصورة قطعية مبالغاً فيه ، والواقع انني رأيت رأي العين قرابة ألف قطعة من امثال هذه القطع . ومن البديهي انني لم ار عشر الكمية بل لم اشهد جزءاً واحداً من مائة جزء بما استخرج منها . انني لم ابصر سوى ما كان في أيدي صغار التجار اليهود الذين لعجزهم عن ارسال انصبتهم الصغيرة من هذه النفائس العتيقة الى اوروبا بعد ان اشتروها من الاعراب قد حاولوا بيعها في مكانها معرضين انفسهم للتبعات والاحطار . ولكن عدا هؤلاء التجار الصغار يوجد تجار كبار يرسلون الى اوروبا في صناديق كاملة تلك اللوحات التي اشتروها في موقع تلو وذلك بارشاء موظفي الكمارك بقناني الخمر او بالهدايا الاقل شأناً من قناني الخمر . وقيل عن لوحة انها بيعت وحدها الى المتحف البريطاني بثلاثمائة ليرة ذهبية . فليس بوسع أي متحف آخر غير المتحف البريطاني العالي المدار احسن ادارة ان يشتري لوحة اشورية لو لم تكن تحتوي على نص تاريخي بالغ الاهمية . وقد حدثت ايضاً عن تمثال حجري وجد في تلو يقول في

(*) كان المنقبون الاوائل يطلقون على كل كتابة مسمارية اشورية بسبب كون الاكتشافات الاثرية الاولى جرت في العواصم الاشورية . ولم تكن اللغات السومرية والبابلية محددة . (س 10)

وصفه الواصفون انه مماثل لتلك التماثيل التي يمتلكها متحف (اللوفر) فيما عدا كونه سليماً تماماً في حين ان تماثيل متحف اللوفر مقطوعة الرؤوس ... ان اعمال التنقيب متصلة اكثر من اي وقت مضى . وان كثيراً من اليهود مقيمون الآن في موقع تللو لشراء القطع الأثرية في مظانها : ويبدو ان الخبرة قد تناهبا المتناهبون ويحتمل ان تكون الجدران نفسها قد عاث بها التخريب والتقويض ولا اشك في اننا لن نرى بعد ثلاثة اشهر أي أثر من الآثار العجيبة في تللو ... ولم يعد يتحدث المتحدثون هنا في هذه الآونة الا عن الارباح الفاحشة التي تحققت . فقد طفحت المدينة بقطع الآثار العتيقة وشرعت السلطات بأعمال المصادرة في كل مكان . ومع ذلك فلم يحدث أبداً ان انتعش التهريب كما هو منتعش الان . ومن المستحيل على محافظي المتحف البريطاني يا سيادة الوزير ، الذين هم واحسرتاه علماء بالشؤون الاشورية بالاضافة الى انهم قد حنكهم الخبرات والتجارب ، ان يجهلوا مصدر الوثائق التي يشترونها . ولن تملكني الدهشة ولن أبأغت يوم ينشرون بعد بضعة اشهر القضية الكاملة عما جمعوا من التحف محلين ابحاثهم بالتندرات الخفيفة على الغفلة الفرنسية وذلك بعد ان تكون خرائب تللو قد اصبحت خاوية الوفاض من الآثار المهمة . وقد حدث مثل هذا اذا لم تخني الذاكرة منذ عشرين سنة تقريباً » .

وبطبيعة الحال يعلن القنصل عجزه على ملأ الاشهاد . فيكتب قائلاً :
« لقد بلغني ان قوة للحراسة قد كلفت بمراقبة موضع تللو خلال بضعة أيام . ولكن هؤلاء الحراس قد اشترت ذمهم وضمايرهم وها اننا نرى جميع صغار موظفي المنطقة يتاجرون هذا اليوم بمواد الآثار العتيقة لحسابهم . اما السلطة العليا فلعجزها عن قمع هذه التصرفات تكتفي بمصادرة الآثار القديمة

التي افلتت من ايدي الاعراب والتجار غباءً او ذهولاً . ولا استطيع ان احمل نفسي على الاعتقاد بأن مجموع هذه الاشياء المصادرة سيأخذ كله طريقه الى متحف القسطنطينية » .

ويحاول مسيو پونيون تفادي ما هو الاسوأ فيقترح بكل بساطة انها عمليات التنقيب في اسرع وقت ممكن ويناشد صديقه الاب شيل . ويضيف قائلاً : « انني اجهل مقدار المال اللازم لانهاء عمليات الحفر في تلو . ولكن حسب جميع المعلومات التي توفرت لدى اراني على يقين بأن الموضوع لن يكلف كثيراً لان موقع تلو هو احد اغنى المواقع ولكنه في الوقت نفسه هو احد أنفه الامكنة في العراق وان تخصيص اعتماد قدره اربعة آلاف فرنك يحتمل ان يمكن الاب المحترم شيل من القيام بالتنقيبات مدى اربعة اشهر كاملة اي من كانون الاول الى نيسان » .

ويختتم قصلنا رسالته بالتذكير بالتعليمات التي تلقاها في عام ١٨٩٠ ويضيف قائلاً : « ادراكا مني بأنني كنت شخصاً مريباً امام وزارة المعارف العمومية فاني منذ تلك الفترة لم انطق باسم تلو في اي تقرير من التقارير التي وجهتها اليها . - وكانت رغبتى الكبرى الا ارغم ارغاماً على كتابة هذا الاسم مجدداً . ولكنني لم استطع ان اتجاهل ما يعلمه العام والخاص وما يتحدث عنه كل الناس وهو ان خربة تلو يتباهيها المتناهبون في هذه الآونة . اقول هذا رغم رغبتى الجارحة في تجاهل الموضوع » .

ولكن باريس لم تهتز اوتارها لهذه التنبؤات العابسة التي جار بها قصلها . فهي لم تكلف بتكليف الاب المحترم بمواصلة اعماله التنقيبية في موضع تلو فحسب وانما جعلت مسيو دى سارزيك يحصل في العام التالي على تجديد مهمته . والواقع ان الحسائر لم تكن على درجة الفداحة التي

زعمها يونيون . لان هذه الاعمال توالى في موقع تلو حتى عام ١٩١٤ بل
 انها استؤنفت في فترة من فترات ما بعد الحرب العالمية الاولى .
 ان مهمة العالم الأثري كانت تنطوي في بعض الاحيان على نشاطات
 لا تحمد اخلاقها . فمن المؤكد ان البعثات التنقيبية تستخدم في العراق
 كادوات فعالة للتغلغل البريطاني في هذه المناطق . ومنذ عام ١٨٥٠ ابدى
 معتمدنا في الموصل مسيو (غاليه) قلقه من هذه البوادر . فكتب في الثامن
 عشر من آذار يقول : « ان وصول الرحالة الانكليز المزعومين قد فاجأني
 وأذهلني وأيقظ شكوكي وهواجسي . لان كل واحد من هؤلاء وحتى اولئك
 المبعوثين بمهمة عادية له غرض خفي خاص . وكلامي هذا بديهية من
 البديهيات . فالمستر لا يارد مثلاً لا يشك احد في انه موفد الى هذه الديار
 من قبل حكومته التي عززته بطبيب ورسام في سبيل مواصلة اعمال التنقيب
 المباشرة في ببقاع نينوى والنمرود وخورصباد وفي اماكن اخرى . ولكنه معي
 لخدمته مئات الاشخاص . وسوف يذهب لزيارة عشائر السهل والجبل ليرفع
 من شأن الاسم الانكليزي ويقوي ركائزه . ويعمل على نحو الاسم الفرنسي
 من ذاكرة الناس . ويحسن بالعمل الدائب المتواصل ظن الاهالي بالانكليز .
 ويشار اليه بالبنان بزرعه الاحسان في هيئة الذهب الرنان . واخيراً ليخلع
 عليهم حمايته » .

الخاتمة

ارجو السماح لي وانا مشرف على الانتهاء من نقض يدي من الكتاب
 بان اصوغ عبارة التمني التي تتلخص بأن يكون في مقدور هذه الدراسة
 القصيرة ان تلهم الباحثين الاخرين الرغبة في ان يغتفوا من معين هذه

الوثائق القنصلية اكثر مما اغتوت . هذه الوثائق التي تكاد تجهلها الكثرة
الكثرة جهلاً تاماً والتي تتضمن حشوداً من التفاصيل العجيبة الطريفة التي
تهم كافة اصقاع الكرة الارضية تقريباً .

إن الكتاب الرائع الذي افه المأسوف عليه مسيو (دولو) عن قناصل
فرنسا في (تريستا) قد فتح الطريق في هذا المجال و اشار الى المثال الذي
يستحق ان يحتذى . وقد بذلت كل ما في طوقى لمحاكاته . وكان طموحي
الوحيد كما سبق ان ذكرته في توطئتي لهذا الكتاب هو ان انتشل من خضم
النسيان اسماء بعض الموظفين الشجعان المخلصين الذين لم يكونوا على وجه
التأكيد ليتخلوا يوم كانوا يحررون الرسائل التي اتهمتم توأ من قراءتها انها
سيقدر لها ان تأخذ طريقها الى النشر في يوم من الايام .

واختتم كتابي متمنياً بكل ما في قلبي من حرارة و اخلاص ان يتاح
لمراسلات اخرى ان تكون موضوع مؤلفات مماثلة لتحمل البهجة والمتعة
والمسرة الى جميع اولئك المعنيين ببعث الماضي من اكفانه .

استدراك

وردت تسمية (سيفيتا فيكشيا) في الصفحة ١٥ ، والحقيقة ان لفظها هو (چيفيتا فيكيا) Civita Vecchia . اسم ميناء ايطالي على البحر الأبيض المتوسط .

اما ستاندال^١ Stendhal ، فهو الكاتب الفرنسي المعروف (١٧٨٣-١٨٤٢) . وقد ورد اسم هذا الميناء في كتابه Chroniques italiennes .



جميع التعليقات المرموز إليها بحرفي (س . أ) . تلتطف بها الاستاذ سالم الألوسي .

المحتوى

الصفحة

١	توطئة ،
٧	القسم الأول — التمثيل الفرنسي في العراق
٢٣	القسم الثاني — السفر
٣٥	القسم الثالث — القطر ، المدن ، المناخ
٥٧	القسم الرابع — السكان
٧٥	القسم الخامس — الادارة
١٠١	القسم السادس — علاقات قناصلنا بالموظفين المحليين
١٠٧	القسم السابع — حماية المواطنين الأوروبيين والمسيحيين المحليين
١٢٥	القسم الثامن — حفلات الاستقبال ومراسيم الأعياد
١٤١	القسم التاسع — علاقات قناصلنا بالجمالية الفرنسية
١٥١	القسم العاشر — الهيئة القنصلية
١٥٧	القسم الحادي عشر — التنقيب عن الآثار
١٧٧	إستدراك ،

وزارة الثقافة والاعلام

مديرية الثقافة العامة

صدرت عن مديرية الثقافة العامة في وزارة الثقافة والاعلام المطبوعات
التالية :

- الثلثين
فلس دينار
- اولا - سلسلة كتب التراث
- ١ - الدر النقي في علم الموسيقى : للقادري الرفاعي الموصلية
وتحقيق الشيخ جلال الحنفي - ٥٠ -
 - ٢ - ديوان عدي بن زيد العبادي : تحقيق وجمع السيد
محمد عبد الجبار المعيد - ٣٠٠ -
 - ٣ - مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء
لياسين بن خیرالله العمري - تحقيق السيد رجاء
السامرائي - ٣٠٠ -
 - ٤ - اصحاب بدر : منظومة الشيخ حسين الغلامي
تحقيق وشرح الاستاذ محمد رؤوف الغلامي - ٣٥٠ -
 - ٥ - ديوان ليل الاخيالية : عني بجمعه وتحقيقه الاستاذان
خليل وجيل العطية . - ٢٠٠ -
 - ٦ - الدر المنتثر في اعيان القرن الثاني عشر والثالث عشر
للحاج علي علاء الدين الالوسي ، وتحقيق الاستاذين
جمال الدين الالوسي وعبدالله الجبوري - ٣٥٠ -
 - ٧ - الجمان في تشبيهات القرآن : لابن فاقيا البغدادي
تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي - ٥٠٠ -
 - ٨ - ديوان العباس بن مرداس : تحقيق يحيى الجبوري
(تحت الطبع)
 - ٩ - رسالة الطيف : لبهاء الدين علي ابو الحسن الاربلي :
تحقيق عبدالله الجبوري (تحت الطبع)
 - ١٠ - خصائص العشرة الكرام : للزمخشري : تحقيق
الدكتورة بهيجة الحسنی (تحت الطبع) .

ثانيا - سلسلة الكتب المترجمة

- ١ - الاصطلاحات الموسيقية : تأليف أ. كاظم
نقله الى العربية عن التركية : ابراهيم الداقوقي
ملحق -١- المستدرك على الاصطلاحات الموسيقية :
للمؤلف نفسه وتعريب ابراهيم الداقوقي - ١٠٠ -
- ٢ - رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر
نقله الى العربية عن الالمانية الدكتور محمود حسين الامين
قدم له وعلق عليه السيد سالم الآلوسي - ٢٠٠ -
- ٣ - الحياة في العراق منذ قرن : للمسيو بيير دى فوصيل . نقله
عن الفرنسية الدكتور أكرم فاضل - ٢٠٠ -
- ٤ - في زنانات اسرائيل - مذكرات النقيب التركي
شهاب طان : ترجمة ابراهيم الداقوقي - ١٢٠ -
- ٥ - الاساطير في بلاد ما بين النهرين : تأليف صموئيل
هنري هوك و ترجمة يوسف داود عبد القادر - ١٢٥ -

ثالثا - سلسلة الكتب الحديثة

- ١ - رائد الموسيقى العربية : تأليف عبدالحميد العلوجي - ٢٠٠ -
- ٢ - معجم الموسيقى العربية : تأليف الدكتور حسين علي محفوظ - ٢٠٠ -
- ٣ - جولة في علوم الموسيقى العربية: تأليف الاستاذ ميخائيل
خليل الله ويردي - ٥٠ -
- ٤ - الحربة : تأليف الاستاذ ابراهيم الخال - ١٠٠ -
- ٥ - موجز دليل آثار سامراء : اعداد سالم الآلوسي - ٥٠ -
- ٦ - موجز دليل آثار الكوفة : اعداد سالم الآلوسي - ٥٠ -
- ٧ - النظام القانوني للمؤسسات العامة والتأميم في القانون
العراقي : تأليف الاستاذ حامد مصطفى - ٣٥٠ -
- ٨ - علي محمود طه ٠٠٠ الشاعر والانسان :
تأليف المرحوم الاستاذ أنور المعداوي - ٢٠٠ -
- ٩ - مؤلفات ابن الجوزي : تأليف عبدالحميد العلوجي - ٢٥٠ -
- ١٠ - أبو تمام الطائي : تأليف الاستاذ خضر الطائي - ١٥٠ -
- ١١ - من شعرائنا المنسيين : تأليف الاستاذ عبدالله الجبوري - ٢٠٠ -

الشمز

فلس دينار

- ١٢- محمد كرد علي : تأليف الاستاذ جمال الدين الألوسي ٣٠٠
- ١٣- أدباء المؤتمر : للاستاذ عبدالرزاق الهلالي ٢٠٠
- ١٤- بدر شاكر السياب : للاستاذ عبدالجبار داود البصري ١٥٠
- ١٥- الواقعية في الادب : تأليف الاستاذ عباس حضر ٢٠٠
- ١٦- شعراء الواحدة : للاستاذ نعمان ماهر الكنعاني ١٥٠
- ١٧- لقاء عند بوابة مندليوم : للاستاذ احمد فوزي ٢٠٠
- ١٨- خسرها معركة ٠٠ فلنربحها حربا :
للاستاذ فيصل حسون ٢٠٠
- ١٩- عطر وحبر : تأليف عبدالحميد العلوجي ٣٥٠
- ٢٠- الدبلوماسية في النظرية والتطبيق : تأليف الدكتور
فاضل زكي محمد ٣٠٠
- ٢١- من عيون الشعر
مختارات الاستاذ ناجي القشطيني ٤٥٠
- ٢٢- مع الكتب وعليها - للاستاذ عبدالوهاب الامين ٢٠٠
- ٢٣- مقال في الشعر العراقي الحديث :
للاستاذ عبدالجبار داود البصري ١٥٠
- ٢٤- مع الاعلام : للاستاذ جميل الجبوري ٣٠٠
- ٢٥- محاكمات تاريخية : بقلم الاستاذ مدحة الجادر ١٢٠

رابعا - سلسلة الثقافة العامة

- ١ - المواسم الادبية عند العرب : تأليف عبدالحميد العلوجي ١٠٠
- ٢ - الادباء العراقيون المعاصرون ونتاجهم :
تأليف السيد سعدون الريس ٥٠
- ٣ - تطور الحركة الوطنية التونسية منذ الحماية حتى
الاستقلال : تأليف الدكتور لؤي بحري
(نفذت نسخه) ٥٠
- ٤ - العلم للجميع : اعداد كامل الدباغ ٥٠
- ٥ - الدين والحياة - تأليف الشيخ محمود البرشومي ١٥٠

الثمن

فلس دينار

خامسا - سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث

- ١ - اللهب المقفى - شعر حافظ جميل - ٣٥٠ -
- ٢ - غفران - شعر محمد جميل شلش - ٢٥٠ -
- ٣ - صوت من الحياة : شعر حازم سعيد أحمد - ٢٥٠ -
- ٤ - مرفأ السنبداد : شعر مؤيد العبدالواحد (تحت الطبع)

سادسا - سلسلة القصة والمسرحية

- ١ - الظامنون : للاستاذ عبدالرزاق المطلبي - ٢٥٠ -
- ٢ - عمان لن تموت : للاستاذ عبدالوهاب النعيمي - ١٠٠ -
- ٣ - من مناهل الحياة : للاستاذ الياس قنصل - ١٠٠ -
- ٤ - رماد الليل : للاستاذ عامر رشيد السامرائي - ١٥٠ -
- ٥ - الهارب : للاستاذ شاكرا جابر - ١٠٠ -
- ٦ - خارج من الجحيم - للاستاذ صادق راجي - ١٢٠ -
- ٧ - عندما تكون الحياة رخيصة - للاستاذ ادمون صبري - ١٢٠ -

سابعا - مطبوعات باللغات الاجنبية

Poetry of Resistance in Occupied Palestine.

Translated By: Sulafa Hijjawi.

Pierre de Vaucelles

**La vie en Irak
Il y a un siècle**

Traduit par : Dr. Akram Fadel

**Publié par le ministère de la Culture
et de l'Information
Bagdad - Irak
1968**



ثمن النسخة ٢♦♦ فلس

المؤسسة العامة للصحافة والطباعة
دار الجمهورية - بئناد
١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م